منهاج الدعوة إلى الإسلام
في العصر الحديث

بقلم

مقداد يالجن

قدم له

الدكتور عبد الحليم محمود — محمد محمد عبد اللطيف ابن الخطيب



منهاج الدعوة إلى الإسلام
في العصر الحديث

تأليف

مقداد يالجن

قدم له

الدكتور عبد الحليم محمود — محمد محمد عبد اللطيف ابن الخطيب

المطبعة المصرية ومكتبتها
تأسست عام ١٩٢٤
سوق الأوقاف بأرض شريف . شارع عبد العزيز
تليفون ٩٠٠٥٣٨

الطبعة الأولى

١٣٨٩ هـ — ١٩٦٩ م

بسم الله الرحمن الرحيم

ادْعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن؛ إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين!

إهــــداء

إلى روح والدىّ العزيزين أهدى هذا الكتاب

إلى أمى الرؤم : لقد حرمنى القدر منك بعد أن حبوتنى بحنانك وعطفك ، وتركت صورتك ماثلة فى عينى وفؤادى ، ولا زالت شمائلك الإسلامية : من حسن العشرة ؛ وحب الخير ، وطيبة القلب ، وسلامة الفؤاد ؛ عالقة بمخيلتى .

نعم يا أماه : لقد حرمنى القدر منك وأنا صغير لا أذكر منك سوى هذه الصورة ، وصورتك عند ما كنت تجمعيننى مع أشقائى وأقرانى دائماً ، وأنت بيننا تقدمين لنا ما يبعث فى نفوسنا البهجة والسرور !

هذا كل ما تركته من ذكريات عندى ، ثم ذهبت وتركت القلب الجريح ، وفى الفؤاد والعين مسكنك الفسيح !

وإلى والدى العزيز ، إلى من يعود إليه فضل تربيتى وتوجيهى الوجهة الإسلامية ؛ لقد علمتنى قراءة القرآن وأنا صغير ، وإن كنت لا أفهم منه شيئاً ؛ لاختلاف اللسان ، وعند ما كنت أتساءل عنه : كنت تجيب تساؤلاتى بأنه كلام ربنا ، يخاطبنا به ، ويرسم لنا فيه طريق الحياة ؛ الذى يريد منا أن نسير عليه .

وغرست فى نفسى حب الإسلام ، والامتثال لأوامره ؛ لأنه طريق السعادة فى الدارين ؛ ولكن كان يضايقنى : عدم فهمى للقرآن ؛ كما كان يضايقنى هجوم بعض الناس على الإسلام ، والتحلل منه ، والابتعاد عنه . فكنت أضيق من ذلك ذرعاً ، فنشأ من هذا وذاك دافعان فى نفسى : دافع لفهم القرآن ، ودافع للذود عن الإسلام ، وكان الأول سبباً لخروجى إلى البلاد العربية ؛ لتعلم اللغة العربية . وكان الثانى سبباً لإخراجى هذا الكتاب ؛ لأبين فيه : لماذا يخرج الناس على تعاليم الإسلام ؟ ولماذا يهاجمه أولئك ؟ وكيف يعالج هذا وذاك ؟

والدى العزيز : كم كنت تتمنى أن أعود لأفهمك ما تقرأه من القرآن ؛ وكم كنت أتمنى أن ترى ثمار غرسك ، وثمرة جهودك ! وإذا بك — وكل منا فيما يتمناه — تغادر هذه الحياة ، وأفاجأ بهذا الخبر الأليم !

والآن يا والدىّ العزيزين . لا أجد من قول أقوله لكما سوى ما قاله تعالى « وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا » !

مِقداد يالجن

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم بقلم
الدكتور عبد الحليم محمود

بسم الله ، والصلاة والسلام على الرحمة المهداة : محمد بن عبد الله ، عليه وعلى من والاه : أفضل صلاة وأتم تسليم !

الإسلام دين الله ، وشريعته الخالدة ، كلف الله بها البشرية بعد أن بلغت البشرية دور النضوج ، فكانت للبشر خاتمة الشرائع .

وكانت بما تحمل من أسس سليمة ودعائم متينة مكينة ، وأصول قوية قويمة ، وبما تمتاز به من خصائص وركائز وسمات ، كانت بذلك كله شريعة عالمية إنسانية ، ودعوة عامة للبشر وللأجيال المتعاقبة من مبعث محمد صلى الله عليه وسلم إلى يوم الدين .

فلا جرم أن كان من الواجب أن ينتشر دين الله فى دنيا الناس حتى يعم الأرجاء ويستظل بظله البشر فى جميع المناحى والأنحاء .

ولا جرم أيضاً أن كان فى عنق المسلمين أمانة ثقيلة بالنسبة لعالمية الإسلام ، ولحتمية الدعوة إليه تلك الدعوة التى لا تقتصر على زمان أو مكان ، ولا على دولة أو هيئة أو بيئة أو جماعة ، بل هى قدر مشترك ؛ لكل مسلم فى هذا القدر دور ونصيب ليؤدى رسالة كاملة فى المجالى المتعددة للدعوة .

فهناك الدعوة إلى الإسلام بين المسلمين أنفسهم ، لتجلية الدين الصحيح وإبرازه فى إطاره الإلهى الصافى السليم .

وهناك الدعوة إلى الإسلام فى الأصقاع والبقاع التى لا تعرف عن الإسلام

إلا طقوساً وشكليات ، فيرشدهم الدعاة إلى الجوهر، وإلى الأسس ، وإلى الأصول والأركان .

ثم هناك الدعوة إلى الإسلام فى أوربا ؛ حيث الإلحاد والوجودية والعقائد المنحرفة ، والفلسفات الزائفة .

ثم هناك الدعوة لمناهضة أعداء الإسلام الذين جندوا طاقاتهم ورصدوا إمكانياتهم ليطفئوا نور الله ، وليطمسوا معالم الطريق الإسلامى والنهج المحمدى .

ومن أجل هذا كان لابد أن يكون لنا نحن المسلمين مخطط شامل منظم ، ومنهج مدروس نواجه به التحديات ، وندعو به أهل هذا العصر بالأسلوب الذى يقتنع به أهل هذا العصر .

وكتاب « منهاج الدعوة إلى الإسلام فى العصر الحديث » الذى يقول مؤلفه الأستاذ مقداد يالجن فى مقدمته : « هدفى من هذا الكتاب تجديد التفكير الإسلامى وإحياء روح الإسلام فى نفوس المسلمين ؛ ولتحقيق هذين الهدفين وضعت منهاجاً جديداً يتلاءم مع عقلية العصر الحديث »

والكتاب بهذا الهدف المحدد : يضع العالم على طريق الدعوة ويحدد الإطار الذى يجب أن يسير فيه الدعاة والهداة والمرشدون ، ثم استعرض بعد ذلك الوسائل التى يراها كفيلة بتنفيذ هذا المنهج .

ومن سمات هذا الكتاب : أنه جلى بعبارة مشرقة عدة جوانب هامة تناولت المبادىء الإسلامية وتحررها عما شابها وشانها ، كما دافع عن بعض القضايا الإسلامية بمنطق المحامى البليغ ، وبراعة المدافع الذى تسلح بالحق ، وزانه بيان رائع وبرهان صادق وحجة بالغة .

أما فيما يتعلق بما كتبه السيد المؤلف عن الطرق الصوفية ، فإن نظرتنا إلى هذا الموضوع تختلف اختلافاً جذرياً عن نظرة الكاتب ، وذلك أن الطرق هداية إلى الله ، وأخذ بيد المريدين إلى سبيل الله . ومشايخ الطرق قوم خبروا المسالك

وساروا فى المعارج القدسية . فهم خبراء يهدون إلى الله ، وأدلاء فى طريق الله ، وما من شك فى أن الباحث المنصف المستقرئ لمفاهيم الإسلام المستتبع لطرقه وطرائقه : يجد أن الإسلام فى أسمى صوره ، وأنقى سبله ، وأصفى مقاصده : هو الصوفية . . الصوفية المبرأة من كل دخيل المنزهة عن الشوائب .

فى ميدان السلوك المثالى نجد التصوف فى القمة ، سئل أبو محمد الجريرى عن التصوف فقال : « الدخول فى كل خلق سنى ، والخروج من كل خلق دنى »

وفى ميدان تكوين الشخصية الإلهية نجد أن التصوف هو الذى يشكل تلك الشخصية ويلون اتجاهها ويكون مقوماتها ، قال الإمام الجنيد ، وقد سئل عن التصوف فقال : « هو أن يميتك الحق عنك ، ويحييك به »

وفى مجال العمل نجد التصوف خلاصة علم وعمل وجد وكد ، يقول الجنيد : « التصوف ذكر مع اجتماع ، ووجد مع استماع ، وعمل مع اتباع »

التصوف جهاد ومجاهدة ، علم وعمل ، شريعة وحقيقة ، روحانية وصفاء ، كشف وإشراق. ثم هو فى النهاية انقياد للحق وسلوك حق على الطريق إلى الله الحق .

إن فى التصوف إيثاراً ، وقد سئل ذو النون المصرى عن أهل التصوف فقال : « هم قوم آثروا الله عز وجل على كل شيء فآثرهم الله عز وجل على كل شيء »

وهو خصيصة لقوم تجردوا مما تكالب عليه البعض ، وعزفوا عما ركن إليه البعض من بهرج زائف ، وزخرف زائل ، وعرض عارض . . خصيصة لقوم جاهدوا أنفسهم أولا ، ثم جاهدوا فى الله فهداهم الله إلى طريقه (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) .

فهو إذن بكل هذه النواحى والمناحى: روح إسلامية كتبت للمجاهدين العاملين الذين أحسنوا العلم فأحسنوا العمل و (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة)

إن الطرق الصوفية وإن تعددت فهى فى مجموعها طريقة ذات هدف واحد ، ومنهج متحد . . . هدفها الله ، ومنهجها الدعوة إلى سبيل الله ، وغايتها أن

تأخذ بيد الأناسى فى طريق الله إلى الله ، والطرق ليست إلا سبيلا لهذه المثل الروحية السامية .

وفى الكتاب صفحات صوفية فقد تحدث المؤلف عن موقف الإسلام من الحياة الجسدية والروحية وساق من الأدلة والأحاديث ما قدمته الصوفية فى هذا المجال من أن الإسلام : دين ودنيا ، وجهاد وجلاء ، وسعى وكد ، وأبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه ، كان فى أوائل الذين ذهبوا إلى المنصورة فى أيام الحرب التى انتصر فيها المسلمون على الفرنج فى معركة المنصورة المشهورة .

والله نسأل أن يكتب لهذا الكتاب ماهو أهل له من ذيوع وانتشار وتوفيق ، وبالله التوفيق ؟

الدكتور عبد الحليم محمود

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم بقلم

محمد محمد عبد اللطيف ابن الخطيب

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين « محمد بن عبدالله » الذى جاءنا بأفضل كتاب وأكمل دين !

وعلى آله الطاهرين ، وأصحابه الطيبين ؛ ومن تبع سنتهم ، وسار على طريقتهم إلى يوم الدين .

أما بعد : فقد عرفنى أحد أبنائى بمؤلف هذا الكتاب « الأستاذ مقداد ياجن » وأخبرنى أنه قد نزح من بلاده « تركيا » إلى سوريا راغباً فى تعلم اللغة العربية ؛ ليتفهم بها القرآن الكريم ، ويتقن قراءته . فلم يجد فى سوريا ما يشفى الغليل ؛ من انتهال ما رغب فى انتهاله ؛ وعلم أن الأزهر الشريف يهتم بما أراده من دراسات ؛ فشد رحاله إلى مصر — المحببة إلى نفسه — فالتحق بالأزهر ، وأخذ الشهادة الثانوية منه ، ثم دخل كلية دار العلوم بجامعة القاهرة فنال منها الليسانس ، كما حصل على دبلوم التربية من كلية التربية بجامعة عين شمس .

وهو الآن فى سبيل إعداد الماجستير فى قسم الفلسفة الإسلامية وإعداد « دبلوم » أخرى فى التربية .

هذا ولما انفردت بالتكلم معه : أعجبت بحديثه الممتلىء غيرة على الدين ، وبمنطقه الواضح الفصيح ، وحجته الرائقة الرائعة .

كما أعجبت بسمته وهدوئه ، الذى يخفى بين طياته ثورة عارمة ؛ على كل من يحاول النيل من دينه الحق « الإسلام »

وكان أكثر إعجابى ؛ بما تميز به من إشراق نور أضفاه الله تعالى عليه ؛ لما يحمله قلبه الكبير من أعباء جسام ؛ لا تمت للحياة المادية بسبب !

شأنه فى ذلك : شأن من تقدمه من كبار المدافعين المصلحين ؛ الذين يترسم خطاهم ، ويسير على هديهم !

وهذا النور قليلا ما نراه على بعض الوجوه التى اصطفاها الله تعالى للدفاع عن دينه ، واختارها لنشر تعاليمه !

وقد سألته فى إحدى مقابلاتى له : مريداً اكتشاف السبب ؛ فيما اكتسبه من علم غير مكتسب ، ومن إشراق لا يأتى وقت الطلب ، ولا يمنح إلا لخاصة الخاصة ؛ من خيرة المؤمنين وخلصائهم !

فظل يحاورنى ويداورنى ؛ وبعد طول لأى علمت أنه قد حظى وشرف برؤية سيد الخلق عليه أفضل الصلاة والسلام مرتين ، أطعمه فى إحداها تيناً ، وضمه فى الأخرى إلى صدره الشريف وبعد أن صلى به وبغيره ممن حضر من المؤمنين رافقه فقال له الرسول صلوات الله تعالى وسلامه عليه : لقد ضاع قلبى فبحث عنه ووجده .

وهنا علمت أن النور قد جاءه من النور الأسنى ، والعلم قد جاءه من العلم الأسمى !

وقديماً قال سيدى محمد البكرى رضى الله تعالى عنه ؛ من قصيدة طويلة :

ما أرسل الرحمن أو يرسل — من رحمة تصعد أو تنزل
فى ملكوت الله أو ملكه — من كل ما يختص أو يشمل
إلا وطه المصطفى عبده — نبيه مختاره المرسل
واسطة فيها وأصل لها — يعلم هذا كل من يعقل !

وتيقنت أنه إنسان موهوب : سعيد فى دنياه وأخراه !

فبدأت أحسده على ما آتاه الله تعالى من علم ، وأغبطه على ما وهبه من فضل !

ومن هنا أيضاً علمت سبب اهتمام العارف بالله : الدكتور عبد الحليم محمود بأمره . وتقديمه لكتابه ، وإشادته بذكره .

ذلك لأن الدكتور عبد الحليم محمود — جزاه الله تعالى خير الجزاء — يجند من بين تلاميذه وأبنائه ؛ قوة يدفع بها عن الإسلام والمسلمين عادية الإلحاد ، وغائلة المادية ، اللتين فشتا فى زماننا هذا فشواً ذريعاً مريعاً ، وأصبحتا قوة ضارية ؛ تكاد تعصف بالأخضر واليابس ، وتعود بالعالم إلى أسوإ عصور الهمجية والوحشية !

ذلك لأن الإنسان بلا دين يكبح جماح الشر فيه ، وبلا إيمان يمنحه الهدوء فى حياته ، والطمأنينة عند مماته : هو إنسان يحسب من الأنعام ؛ بل وشر من الأنعام !

« أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون »

والإنسان بلا رب يلجأ إليه ؛ فيرتمى فى أحضان حنانه وعطفه ، ويجثو عند أبواب بره ولطفه ، ويثق بوصول خيره وثوقه بنفسه : هو كالحيوان الهائج الثائر ، الجريح الجائع ؛ فى المهمه القفر ؛ حيث لا ماء ولا كلأ ؛ فيعتصر من دمه ليشبع نهمه ، ويعتصر من روحه ليرضى طمعه !

ولكن هيهات هيهات للجائع أن يطعم بلا مطعم ، وللخائف أن يأنس بلا مؤنس ، وللميت أن يحيا بلا محي !

هيهات أن تكتب لمثله الحياة ؛ بعد أن رفض كل مقوماتها ؛ فيسقط حينذاك : فريسة كفره بمولاه ؛ فتتلقفه ملائكة العذاب بما هو أهله !

وحينئذ يؤمن بالله ؛ حيث لا ينفع الإيمان ، ويتمنى الرجعة حيث لا رجعة « حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون » ويقذف به فى النار ، وبئس

القرار ؛ جزاء كفره وحمقه ، وتجاهله لمولاه ؛ الذى خلقه منذ القدم ، وأنشأه من العدم !

بيد أن الدكتور عبد الحليم محمود ؛ لم يرق له لمز مؤلف الكتاب لبعض الطرق الصوفية ، ووصفها بالانحراف .

والدكتور يعلم حق العلم : أن منها من انحرف فعلا عن جادة الصواب ، وعن الحدود التى رسمها الدين الحنيف .

ولكنه خشى أن تلوك الألسنة قوماً هم خيرة الخيرة ، وصفوة الصفوة !

هذا وقد احتاط الدكتور عبد الحليم محمود فى تقديمه ؛ حيث قال فى وصف الصوفية :

« الصوفية المبرأة من كل دخيل ، المنزهة عن الشوائب »

ولم يقصد المؤلف غير الدخلاء على الصوفية ؛ الذين لم يتنزهوا عن الشوائب .

وفى الواقع أن السادة الصوفية — رضى الله تعالى عنهم — هم هداة البشر ، وعلماء الحقيقة : اتقوا الله فعلمهم ، وخافوه فأرشدهم !

فهم نور الدنيا ، وضياء الحياة ؛ وأن الذين حادوا عن الطريقة المثلى ، وانسلخوا من المراتب العليا ، وانحرفوا عن المنهج السوى : ليسوا منهم ؛ ولو مشوا على الماء ، أو طاروا فى الهواء !

ومنذ القدم ؛ وسادتنا الصوفية عرضة للمحن والامتحان ؛ فقد قتل منهم من قتل ؛ بتهمة الحلول ؛ ولم يكن ثمت سوى حلول نور الله تعالى فى قلوبهم لا فى أجسادهم !

وشرد من شرد ؛ بتهمة وحدة الوجود ؛ وما كان ثمت سوى وحدة الموجود !

ولم يغفلوا طرفة عين عن ذكر مولاهم ، الذى أنشأهم ورعاهم ؛ حتى لاقوه : راضين مرضيين !

وإن نفس لا ننس مالاقاه ولى الله الحلاج ؛ من عنت جلاديه ، وإيذاء شانئيه !

ولن أغالى فى مدح السادة الصوفية فأرتفع بهم عن مستوى الأنبياء — عليهم الصلاة والسلام — كما تردى بعضهم فى هذا الفهم الخاطىء ؛ حينما حيره مفهوم تصرف الخضر مع موسى عليهما السلام . فتوهم علو قدر الولى على النبى !

ولن يصح بحال : ارتفاع قدر بعض المرسل إليهم ؛ على قدر الرسول : الذى اصطفاه الله تعالى واختاره لهدايتهم !

ولا يزال بعض الأمة الإسلامية — منذ نزول الإسلام — مصاب بغلو الإفراط والتفريط !

فهاهو على كرم الله تعالى وجهه ؛ وقد أساء إليه قوم برفع قدره فوق قدر المصطفى ، بل منهم من رفعه إلى مرتبة الألوهية !

وأساء إليه آخرون بأن حطوا من شأنه ونسبوا إليه ما هو منه براء !

حتى صحابة الرسول صلوات الله تعالى وسلامه عليهم : لم ينج واحد منهم من القدح ، وقد أمرنا باتباعهم والاهتداء بهديهم !

وقانا الله تعالى شر السقوط فى الموبقات ، والوقوع فى المهلكات !

والمؤلف حينما كتب ما كتب عن الصوفية ؛ كان متأثراً بما قاله الإمام القشيرى فى رسالته ؛ عن انحراف بعضهم فى زمانه .

ومتأثراً أيضاً بما علمه عن بلاده « تركيا » فى عهدها الغابر : حين كانت الصوفية مدعاة للخمول والتكاسل . وكانت هناك أكثر من مائة طريقة ؛ كلها تجانب الحقيقة ، وتجافى الدين . وكانوا يدفعون الناس دفعاً إلى الزوايا والتكايا ؛ وهذا — كما ترى — أبعد ما يكون من الإسلام والمسلمين !

ومما يدل على حسن نية المؤلف — حين كتب ما كتب عن الصوفية — أنه صوفى بطبعه وفطرته ، صوفى بنفسه وروحه ، صوفى بصفائه وعبادته ، صوفى بسلوكه وإخلاصه !

ونحن الآن قد صرنا إلى زمن شر مما سبقه من الأزمنة ؛ ورأينا رأى العين انحراف كثير من المسلمين ؛ ومنهم بعض الصوفية .

وهذا لايعيب الإسلام من قريب أو بعيد ، ولا يعيب التصوف فى ذاته ؛ الذى هو من صميم الدين .

وليس هذا دفاعاً عما قاله المؤلف ، ولا دفعاً لما قاله الأستاذ الجليل ؛ الدكتور عبد الحليم محمود .

ولكنها الحقيقة المجردة — التى ارتضاها الله تعالى لعباده — نعرضها لمن كان له قلب !

والكتاب — كما أسماه مؤلفه — « منهاج الدعوة إلى الإسلام فى العصر الحديث » وكم تشقل الدعوة إلى الإسلام فى العصر الحديث !

فقد أوشك الإسلام أن يعود غريباً كما بدا ! مصداقاً لقول الصادق المصدوق ؛ عليه الصلاة والسلام !

لكن المؤلف بين فى كتابه هذا — الصغير الكبير — الدين الإسلامى بياناً كافياً : كقانون عالمى ، وكمنهاج أخلاقى ؛ صالح لكل زمان ومكان ، ولكل جنس وبيئة . ودعا إلى وضع المبادىء الإسلامية على طريقة التقنين .

وهى دعوة قد سبقه إليها — إن لم تخنى الذاكرة — الإمام الشيخ محمد عبده . وقد ثار فى وجهه علماء الأزهر فى ذلك العهد ؛ وظللنا ردحاً من الزمن نعانى الأمرين : من القانون الفرنسى « قانون نابليون » وفيه ما فيه من ترويج لشتى الموبقات : كإباحة صناعة الخمر ، والاتجار بها ، وشربها ، وإباحة الزنا — بل وتنظيمه — وانحراف عن كثير من مقتضيات المروءة والأخلاق !

وقد علمت أن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ؛ قد أعد العدة لعمل مثل هذا التقنين .

وقد اتخذ المؤلف — فى كتابه هذا — أسلوباً موفقاً فى الدعوة إلى الإسلام وأسلوباً أكثر توفيقاً فى دفع ما حاكه بعض خصوم الإسلام ؛ الذين خرجوا عليه — احتساباً لوجه الشيطان — من مستشرقين ، ومستعمرين ، وفلاسفة ، وأعداء مستترين ، وآخرين مسافرين .

وكان دفعه لجميع هؤلاء بالحجة البينة ، والبرهان الساطع القاطع ؛ مما يجعل هذا الكتاب جديراً بأن يدرسه سائر المسلمين !

والمؤلف قد بين فى كتابه هذا : الأسباب التى أدت إلى انحراف المسلمين ، وأبعدتهم عن كتابهم المبين ؛ والأسباب التى تعيد إليهم مجدهم التليد ، وتبوئهم المكان الذى أعده الله تعالى لهم ، والزعامة العالمية التى أهلهم لتوليها !

ولم يكن هذا الكتاب أول كتاب ألفه المؤلف : فقد أصدر كتباً عدة ؛ لم يكتب لها الظهور بعد .

منها : « الشعوب الإسلامية ووسائل التقريب بينها » و « الإسلام دين الوحدة » و « البيت الإسلامى كما ينبغى أن يكون »

وقد أخذ عن تأليفها أرقى الجوائز العلمية من المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

ومنها أيضاً : « الطريقة المثلى فى التعلم » و « نشأة الطرق الصوفية » و « المجتمع المثالى كما يصوره القرآن »

وهذه الكتب قد اطلعت عليها — اطلاعاً عابراً — فوجدت كل واحد منها شافياً كافياً فى بابه !

أعانه الله تعالى على إتمام ما بدأه من جهد وجهاد .

هذا وقد علمت ممن زامل المؤلف — وقت تأليفه لهذا الكتاب — أنه كان يخلو بنفسه فى الأماكن التى ليس فيها أنيس سوى الله تعالى ، ولا جليس سوى التفكر فى ملكوته !

فقد كان يقضى الأيام تلو الأيام على سفح جبل المقطم ؛ ويظل متأملا فيما وصل إليه حال المسلمين — وهم خير أمة ، على خير ملة — مفكراً فى ربه ومولاه ، الذى كفله ورباه ؛ حتى يداهمه الظلام ؛ فيوقظه من سنته ، وينبهه من غفلته بعض الخفراء بهذه المنطقة ؛ ويقولون له : ألا تخشى على نفسك من اللصوص فى هذا المكان ؟ فيجيبهم : بأن ليس معه ما يسرق ، وأنه مع الله تعالى وفى رحابه .

وهذه — فى نظرى — أسمى مراتب الصوفية !

كما علمت أيضاً أن والد المؤلف : كان يحرص على عدم إرساله إلى المدرسة : خشية إفساد دينه ، وإبعاده عن الإسلام !

ولما أن شرعوا فى معاقبة المتخلفين عن الدراسة : أرسله مكرهاً إليها ؛ مع تزويده بالنصح .

فكان المدرسون يمنعونه — فى ذلك الحين — من أداء الصلاة .

وكان من حرصه على دينه — كما عوده أبوه عليه رحمة الله — يقفز من فوق سور المدرسة ؛ ليؤدى واجب ربه فى وقته !

ومما هو جدير بالذكر أن المؤلف حينما اطلع على هذه المقدمة : أتانى — مدهوشاً مبهوتاً — متوسلا ، راجياً أن أحذف منها ما أسبغته عليه من صفات ؛ يرى أنه غير أهل لها . ملحاً فى رفع ما أثبته من رؤيته للرسول صلوات الله تعالى وسلامه عليه .

غير أنى رأيت عدم الاستجابة إلى رغبته ؛ مبقياً على ما كتبت ؛ مستنداً إلى هدى من تقدمنا من علية القوم الذين نشروا فى مؤلفاتهم مرائيهم الحسان : ليثبتوا صحة ما ذهبوا إليه فى هذه المؤلفات .

حتى أن بعضهم قد ذهب إلى أنه قد تلقى ما كتب عن الرسول — عليه الصلاة والسلام — مشافهة !

فلا ضير من ذكر ما ذكرناه .

هذا ولن أحاول — فى تقدمتى هذه — الثناء على المؤلف ؛ فقد أثنى عليه ربه تعالى بما وهبه من نور سكن قلبه ، وعلم سكن لبه ، وإيمان أنار وجهه !

والله تعالى أسأل أن يحشرنا جميعاً فى زمرة خير خليقته ، وأن يظلنا بظله يوم لا ظل إلا ظله « يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم » ؟

ابن الخطيب

تمهيد

كان هدفى من هذا الكتاب : هو تجديد التفكير الإسلامى ، وإحياء روح الإسلام فى نفوس المسلمين ؛ ولتحقيق هذين الهدفين وضعت منهاجاً جديداً : يتلاءم ويتناسب ، مع عقلية العصر الحديث ، وفى أثناء عرض هذا المنهاج ورسم هذه الطريقة : تعرضت لبعض القضايا الكبرى ، بقصد توضيح الفكرة المنهجية ؛ وبقصد إثارة الاهتمام بها لا بقصد معالجة هذه القضايا بالتفصيل ، لأن معالجتها بالتفصيل يحتاج إلى أعمال كبيرة ، ومجهودات ضخمة ؛ لا يكفى معها مجهود فرد واحد مهما كان !

ولهذا كانت معالجتى لها تتسم — أحياناً — بالإشارة والتعميم ، ولهذا فإن القارىء يحتاج لفهمها إلى شىء من التأمل والروية .

أما فيما يتعلق بعرض المنهج الذى هو يمثل صلب الكتاب وجوهره ؛ فقد جاء هذا العرض واضحاً .

والمهم فى الكتاب أن يوضح ما جاء من أجله ؛ لا ماجاء فيه عرضاً ، وكان فى إمكانى توضيح ما جاء فيه عرضاً أكثر من هذا ، غير أن محاولتى لأن يكون الكتاب موجزاً ، متناسقاً ، واضح الغرض ؛ بأقل تعبير ، فى حجم صغير : جعلنى أكتفى بهذا القدر وهذا الحجم .

وختاماً لهذا التمهيد : لا يسعنى إلا أن أسجل شكرى لأستاذى الفاضلين ؛ الأستاذ الدكتور محمود قاسم عميد كلية دار العلوم - جامعة القاهرة - ورئيس قسم الفلسفة الإسلامية فيها . والدكتور محمد كمال جعفر مدرس الفلسفة بالكلية :

لتفضلهما بقراءة هذا الكتاب وإبدائهما بعض الملاحظات .

كما أسجل شكرى بصفة خاصة للأستاذين الفاضلين : الأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ، والأستاذ محمد عبد اللطيف ابن الخطيب : حيث تفضلا بقراءة الكتاب وإبداء رأيهما بصراحة ووضوح فى جميع نواحيه فى تقديمهما له .

والله أسأل لهم جميعاً دوام التوفيق فى خدمة العلم والمعرفة ؟

مقداد يالجن

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

للإسلام قيمة عظيمة ، تتجلى لنا هذه الحقيقة : حين ندرك أنه أعظم تفسير لبدء هذا الوجود ومصيره ، وأنه منهاج الله الدائم للإنسانية فى مفهومه الكلى ، وأحسن نظام ثابت ؛ لتنظيم علاقات الإنسان : سواء كانت هذه العلاقة بينه وبين خالقه ، أم كانت مع بقية أبناء جنسه .

ولكن هذه القيمة العظيمة ، وهذا المفهوم القيم ، قد زالا عن الإسلام فى أذهان كثير من المسلمين ، وبدءا يتناقصان يوماً بعد يوم فى العالم الإسلامى كله .

وذلك بسبب العوامل المتعددة ، ورواسب القرون المتتالية ؛ التى كانت لها أسوأ أثر فى تغيير المفاهيم الإسلامية ، وتشويه معانيها السامية ، وإبعاد المسلمين عن منهجه وطريقه المستقيم .

هذه العوامل لابد أن نتعرف عليها لإزالتها ، ولا يكفى أبداً تعرفنا على هذه العوامل مجردة عن أسبابها الحقيقية ، ذلك أن القضاء على ظاهرة ما ؛ لا يجدى شيئاً ما بقى سببها ، وأن بقاء الأسباب : سبب لتجدد المسببات من حين إلى آخر .

ثم بعد معرفة العوامل وأسبابها ؛ لابد من اتخاذ أسلوب وطريقة ؛ للتخلص منها . ومن هنا ندرك مدى ضرورة اتخاذ منهاج جديد .

بعد هذا لا بد من اتخاذ منهج أيضاً لإظهار جوهر الإسلام وقيمته ؛ حتى نستطيع أن نحببه إلى الناس عامة ، وإلى المسلمين خاصة ، وندخله فى قلوبهم .

ذلك أن بعض الظروف المحيطة بنا ، والتى لم تكن موجودة من قبل ؛

تضطرنا إلى اتخاذ طريقة جديدة إزاءها .

وأخيراً يتحتم علينا : اتخاذ وسائل معينة لتنفيذ هذا المنهج .

فإذا أردنا إعادة الإسلام إلى واقع حياتنا ؛ فلابد أن نتخذ منهجاً ، ولابد أن يكون هذا المنهج محدداً ، وأن يكون سليما منطقياً .

أما ضرورة المنهج المحدد ؛ فلما عرفنا . ولأن كثيراً من الزعماء الذين حاولوا الإصلاح ولم يتخذوا لأنفسهم منهجاً محدداً : كان حليفهم دائماً الفشل !

وأما ضرورة أن يكون المنهج سليما منطقياً ؛ فلأن كل منهج لا يؤدى دائماً إلى الغاية التى وضع من أجلها ؛ إلا إذا كان سليما منطقياً .

ولا يمكن أن يكون المنهاج سليما فى هذا الشأن ، إلا بعد دراسة جميع المشاكل المختلفة التى يعانى منها المجتمع الإسلامى ، ومعرفة حكم الإسلام فى الأوضاع الحاضرة .

ثم دراسة حقيقة موقف المسلمين من الإسلام من جهة ، وموقف الأعداء من الإسلام والمسلمين من جهة أخرى .

وإننى حين أدركت تلك القيم العظيمة ، التى اختص بها الإسلام ، إلى جانب إدراكى تلك العوامل التى شوهت روح تلك القيم ، وتلك الرواسب التى رانت عليها ، وسترت جوهرها عن أعين الناس ؛ حتى أبعدت المسلمين عن الإسلام ، وجعلت الباحثين عن الحق لا يرون ــ وسط هذه الظلمات ــ تلك الحقائق التى لو رأوها كما هى لاتبعوها بلا شك ! ثم إدراكى بعد ذلك أسباب فشل تلك المحاولات التى قام بها المخلصون ، لإعادة الإسلام إلى الحياة .

حين أدركت كل هذا : اهتديت إلى منهاج أرى من الواجب اتباعه فى الدعوة إلى الإسلام ؛ فى هذا العصر ، الذى تحير الناس فيه فى اتخاذ منهاج ثابت للحياة يسعدهم فيها سعادة كاملة ، العصر الذى يعج العالم فيه بالمبادىء الأجنبية المتشعبة ،

الكثيرة ، التى أثارت الخلاف والشقاق بين الشعوب الإسلامية خاصة ، وشعوب العالم عامة !

وإنى أرى ضرورة اتباع هذا المنهاج ، حتى نستطيع بذلك أن نزيل عن الإسلام الرواسب المتراكمة عليه ، ونظهره فى ثوب جديد ؛ يسر الناظرين ، ويجذب أفئدة الشعوب للعمل به ، وللسير على منهجه فى الحياة .

وفى هذا المنهاج عقدت فصلا : حاولت فيه أن أبين حاجتنا إلى الإسلام ؛ كأعظم تفسير لهذا الكون ، وأحسن منهاج وضع لسعادة الإنسان .

ثم عقدت فصلا ثانياً : كشفت فيه أهم العوامل التى شوهت روح الإسلام ، والتى لا تزال تؤدى دورها هذا ، حتى الوقت الحاضر .

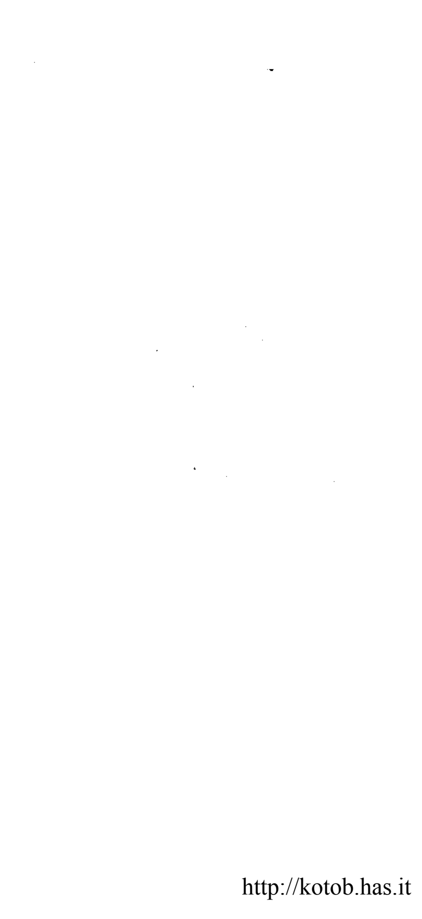
إلى جانب هذا بينت الوسائل التى بها يمكن أن نتخلص منها .

بعد هذا : عقدت فصلا ثالثاً : رسمت فيه الطرق التى يجب أن نتبعها حتى نستطيع أن نظهر الإسلام فى ثوب جديد ، وفى صيغة حديثة ؛ تلائم عقلية العصر الحديث ، وتتسع لجميع الوقائع الموجودة حالياً .

وأخيراً عقدت فصلا رابعاً : وضحت فيه الوسائل التى يجب اتباعها ؛ لتنفيذ هذا المنهاج والطرق التى رسمتها له .

وإنى لأسأل الله تعالى التوفيق لما نهدف إليه ، والهداية إلى طريق الحق الذى يرتضيه . وأسأله أن يحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون !

صقر أبو الجون



الفصل الأول

حاجتنا إلى الإسلام كمنهج للحياة

الإسلام

منهاج إلهي خالد للحياة

لو أدرك الناس حقيقة الإسلام ، وفلسفته التى تقوم عليها نظرياته المختلفة ، التى جاء بها لتعالج المشاكل لهذا الإنسان : المعقد الرغائب والأمزجة ، ووقفوا بجانب ذلك على الحقائق التاريخية — قديماً وحديثاً — لحياة الإنسان : كيف سعد حين سار على طريقة الإسلام ، وكيف شقى حين خرج منها ، وحاد عنها !

لو أنهم وقفوا على كل هذه الحقائق : لأدركوا تماماً أن الإسلام منهاج إلهى خالد للحياة ، وضعه الله لسعادة الإنسان ، منذ أن خلقه فوق هذا الكوكب .

إذن فليس الإسلام حديث العهد بالإنسانية ، وإنما هو دين الله الدائم ، ومنهجه الوحيد ، مصداق ذلك قوله تعالى : « إن الدين عند الله الإسلام » (١) « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » (٢) .

فقد سار على هذا المنهاج آدم عليه السلام ، وسار من بعده الرسل حتى محمد — صلى الله عليه وسلم — من غير تبديل أو تغيير فى أصل من أصوله العامة ، أو قاعدة من قواعده الكلية ، يؤيد هذا قوله تعالى « شرع لكم من الدين ماوصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » (٣) .

وإذا كانت هناك تشريعات جزئية مختلفة : من شريعة نبى ، إلى شريعة نبى

---

(١) سورة آل عمران آية ١٩ (٢) سورة آل عمران آية ٨٤

(٣) سورة الشورى آية ١٣

آخر ؛ وفقاً لتطورات اجتماعية ، ولاختلاف الظروف والبيئات ؛ فهذا لا ينافى أبداً اتفاق الأصول والنظريات الكلية .

وبناء على هذا الفهم : ذهب فقهاء الأحناف إلى أن شريعة من قبلنا : شريعة لنا ؛ ما لم يرد نسخ صريح .

هكذا كان الإسلام : منهاج الرسل والأنبياء الذين جاءوا قبل نبينا ، وكلما قبض نبى تفرقت أمته ، وشوهت معالم هذا المنهاج ، وحرفت مبادئه وفقاً لهواها ، وخرجت عن سواء السبيل ؛ حتى ضلت عن منهاجها السوى .

عند ذلك يختل فهم نظام الحياة ، والقيم الإنسانية الحقيقية : فتفسد الحياة ، وتفسد القيم ، ويتسرب الفساد إلى أمزجة الناس ، وأخلاقهم ، ومن ثم يعيش الناس فى شقاء وحيرة وظلام !

فى هذه الحالة : إما أن ينزل الله بلاء عليهم فيهلكهم ، أو يرسل إليهم رسولا يدعوهم إلى طريق الحق ، وإلى منهاج الله المرسوم لهم ؛ فيكشف لهم عن جوهره ، ويزيل ماران عليه من الخرافات ، ويعيد المبادىء المحرفة إلى أصولها الصحيحة !

فعندئذ من الناس من يفتح بصيرته ليبصر الحق فيرى ، ويتفقه بقلبه ليتعظ !

ومن ثم فهم يؤمنون بما جاء به من الحق ، متجردين من المصالح الشخصية ، والتعصب البغيض « أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم (١) »

ومن الناس من لا يصغى ليسمع ، ولا يفتح بصيرته ليبصر ، ولا يعمل قلبه ليفقه « صم بكم عمى فهم لا يرجعون(٢) »

لا يؤمنون لأنهم لم يحكموا عقولهم أولا ، ولم يتجردوا من مصالحهم الشخصية وتعصبهم البغيض ثانياً . وبذلك حقت عليهم الضلالة « أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون(٣) » !

---

(١) سورة الأنفال آية ٤ (٢) سورة البقرة آية ١٧ (٣) سورة الأعراف ١٧٩

هذا وقد يظهر لهم أن أكثر ما يدعو إليه الرسول : جديد وغريب عليهم ؛ لانحرافهم عن المنهج ، وتحريفهم مبادئه ، وتراكم الخرافات عليه ، ومن ثم يتهمونه بأن ما أتى به من المبادىء الجديدة : اختلقها من عند نفسه ؛ فقالوا « إن هذا إلا اختلاق(١) » وتعجبوا منها « بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شىء عجيب(٢) » « أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشىء عجاب(٣) » .

وقد يكون بعض ما يدعو إليه موجوداً فى دين نبى سابق ؛ وهنا يتهمونه بأنه أخذه من السابقين ، ويريد تأليف دين مصطنع من هذا وذاك .

ومهما يكن من أمر فإن الله لم يرسل رسولا ؛ إلا وأظهر على يديه طريق الحق ، ونور الهداية ، ومنهاج الحياة .

هكذا استمرت الحال ؛ حتى جاء آخر الأنبياء ، وسيد الرسل : محمد بن عبد الله — صلوات الله عليه وسلامه — فأبطل تلك الأباطيل المتلاحقة بمنهج الله ، وأعاد تلك المبادىء المحرفة إلى أصولها الصحيحة ، وأزال عن وجهها تلك الظلمات الحالكة ، وأعاد الحق .

وقد حاربوه بجميع الوسائل التى يمكن الوقوف بها أمام دعوته « يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون(٤) » .

وختمت به الرسالات واكتمل بما جاء به منهاج الله بجميع جزئياته وفروعه وصدق الله العظيم : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا (٥) »

فى العبارات الموجزة السابقة : حاولنا توضيح أن الإسلام منهاج الله للبشرية ؛ يمتد تاريخه الحقيقى إلى بداية الحياة الإنسانية .

بيد أن هذا لا يكشف لنا جوهر هذا المنهاج ، ومدى حاجتنا إليه ؛ لذا سوف نبحث فى الصفحات القليلة الآتية عن هاتين الناحيتين فى جوانبه المختلفة

---

(١) سورة ص آية ٧ (٢) سورة ق آية ٢ (٣) سورة ص آية ٥

(٤) سورة المائدة آية ٣ (٥) سورة الصف آية ٨

واستخراجها ما استطعنا إلى ذلك سبيلا ؛ حتى يتضح جلياً مانتوخاه من عقد هذا الفصل فى بداية هذا الكتاب .

جانب العقيدة

إن العقيدة الإسلامية : خير وسيلة لإسعاد الإنسانية ؛ من حيث إنها أصدق تفسيرللوجود يمكن أن تطمئن لها العقول ، وتعتمد عليها ، ومن حيث إنها أكبر وازع ، وأعظم رادع عن الشر !

أما إنها أصدق تفسير للوجود : فهذا حق لا ريب فيه ؛ تظهر هذه الحقيقة عند التفكير السليم !

ذلك أننا عند ما نلاحظ التفسيرات التى قام بها الإنسان — عبر تاريخه الطويل — لتفسير هذا الوجود ، وللوقوف على حقيقة هذا الكون الكبير ؛ حين نلاحظ هذا ؛ نعرف أنها لم تشف غليل الدافعية فى الإنسان إلى محاولة فهم هذا الوجود المحيط به .

هذه الدافعية حقيقة واقعة ؛ ذلك أنه ما من أمة إلا وقد تساءلت عن حقيقة هذا الكون : كيف وجد ؟ ومن الذى أوجده ؟ ومتى وجد ؟ وما حقيقة الإنسان ؟ وما مصيره ؟ ما الموت ؟ وماذا بعد الموت ؟

وما خلت أمة من الأمم — قديماً أوحديثاً — إلا وقد أوجدت لها تفسيراً ، سواء كان حقاً أو باطلا ؛ استمدت تفسيرها من الأديان ، أم من عند نفسها .

غير أن هذه التفسيرات غير الإسلامية ، ونقصد من الإسلام معناه الحقيقى الذى ذكرناه سابقاً .

هذه التفسيرات : متضاربة مختلفة ، غيرشاملة ؛ بالإضافة إلى هذا فإنها متزعزعة غير ثابتة ، وبعضها ضعيف واه .

لأن أكثر هذه المفسرات : واقعة وراء حدود إدراك العقل الإنسانى .

فهم وإن اهتدوا إلى معرفة وجود بعض المغيبات : مثل البعث ، والحياة الأخرى ؛ إلا أنهم أحسوا بجهلهم لمعرفة كيفيته ، فإن بينوا شيئاً منها موافقاً للدين ؛ فإنما استمدوه منه بطريق مباشر أو غير مباشر .

أما وجود أجسام نورانية : مثل الملائكة ؛ فلا يمكن إدراكه بالعقل ؛ لا كماً ، ولا كيفاً . وإن سلم العقل — بعد سماعه بطريق الوحى — بإمكانه .

بعد هذا العرض السريع لهذه التفسيرات ، من الممكن وصفها بما يأتى :

أولا — أنها غير شاملة .

ثانياً — أنها غير ثابتة .

ثالثاً — أنها لا تجعل الإنسان يطمئن إليها ، ولا يستريح لها ؛ بل يظل متذبذباً ، متحيراً ، مزعزع الفكر ، مشتت العقل ، غير ثابت الاتجاه .

من أجل هذا : كان الناس بحاجة شديدة إلى عقيدة تفسر هذا الوجود ، منزهة عن الخصائص السابقة ، متصفة بالشمول ، والثبات ، والصدق ، والمطابقة للحقيقة ، تطمئن إليها العقول ، وتستريح لها القلوب .

ومن أجل هذا : وضع الله للناس منهاجاً اعتقادياً متصفاً بالأوصاف السابقة ؛ حتى يثبتوا على عقيدة واحدة ثابتة واضحة ؛ يسيرون على هداها ، فى فهم الحياة ، وما بعد الحياة .

فبذلك أراح الله الناس بهذه العقيدة من تلك الضلالات ، والمجهودات العقلية ، التى لا يمكن أن تصل مهما بذلت من جهد إلى نتيجة مطلوبة .

وأما إنها أكبر وازع ، وأعظم رادع عن الشر فكما يتبين لنا ذلك الآن ؛ حقاً أن هناك زواجر للإنسان : مثل القانون ، والمجتمع ، والضمير .

والضمير : من أضعف الزواجر ؛ إذا لم يستند إلى الإيمان بالله !

وسلطان القانون والمجتمع : يمكن أن يأمن من سطوتهما فى حالات متعددة ؛ فعند ذلك يفعل ما يريد ؛ ما دام يجد الفرصة السانحة للجريمة التى أراد ارتكابها !

هذا كما أنه يمكن أن يتخلص من سلطانهما بالوسائل المختلفة كما نرى اليوم ؛ كيف يبرر المجرمون جرائمهم ، وتضيع الحقوق فى سبيل المحاباة ، والرشوة ، والخدعة ، وغير ذلك من الطرق المعروفة وغير المعروفة .

أما العقيدة الصحيحة (أى الإيمان بالله) فهى أقوى من الزواجر السابقة ، وأكثر شمولا على الحالات الظاهرة والخفية .

ذلك أنه عند ما يؤمن المرء ، إيماناً صادقاً أن هناك إلهاً يراه ، ويراقبه فى أعماله ، ويحاسبه عليها « يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم(١) » و « لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض » ولا يخفى عليه شىء ؟ لأنه يعلم الجهر وما يخفى : يراه أينما ذهب وحل .

عند ما يؤمن هذا الإيمان : فإنه لا جرم يردعه عن ارتكاب الجرائم والتعدى على حقوق الناس ، ولو أمن سطوة الحاكم ، وسلطان القانون ، وتعيير المجتمع .

إلى جانب هذا فإن الإيمان لا يتركه يقف موقفاً سلبياً حيال المجتمع ؛ بل يدفعه إلى التعاون معه ، وعمل الخيرات ، وإلى الإخلاص فى عمله ، وإتقان صنعته .

ثم إن الإيمان كما يقول نديم الجسرى «دواء ناجع لمعالجة الأمراض التى تخدش القلوب ، وتأكل الصدور »

فهو برد للقلوب إذا احترقت عند المصائب ، وهو طاقة تمد العزائم بالقوة فى الشدائد ، ومسكن للنفوس إذا نزل الموت أو قربت أيامه ، وعماد الرضى والقناعة بالحظوظ ، وشفاء للصدور من مرض الحسد ، والانتقام والغيظ .

وماذا تكون حياة الإنسان عند فقدان الإيمان ؟!

لاشك تكون أشقى وأسوأ من حياة الحيوان !

ذلك أن الحيوان يموت كما نموت ؛ ولكنه فى نجوة من هلع المصير ، وخوف الموت . ويجوع كما نجوع ، ولكنه فى مأمن من هم الرزق ، وكرب الحاجة ، ويتمتع

---

(١) سورة الشعراء . آية ٨٨ (٢) سورة سبأ آية ٣

كما نتمتع ؛ ولكنه فى راحة مما يأكل القلوب : كالحسد ، والكذب ، والنميمة ، والقذف ، والنفاق ، والخيانة ، والعقوق ؟

وهو يدافع عن نفسه كما ندافع ، ويسفك الدماء ليشبع ، ولكنه لا يسفكه ترفعاً ، ولا تكبراً ، ولا جوراً ، ولا سرفاً !

أما هذا الإنسان : الهلوع ، الجزوع ، الطامع ، المتكبر ، السافك الدماء ؛ فإنه لا علاج يشفيه من هذه الأمراض ؛ إلا الإيمان . وبدون الإيمان فإن الإنسان يصبح أسوأ الخلائق حظاً ، وأشدها شقاء ، وأرذلها مصيرا ، (١) .

وأخيراً : فإن العقيدة جاءت من أجل أغراض لم تستنفد بعد :

من هذه الأغراض : تحرير الإنسان من عبودية الأصنام ، أو الحيوانات ، ولتحريره من عبودية الناس ، وعبودية المال ، والشهوة !

ولا زالت هذه الضروب من الاستعباد قائمة ، لا يزال مئات الملايين من الناس يعبدون الأصنام ، والحيوانات ، أو غيرها ؛ فى مختلف أجزاء الأرض ، وأكثرهم فى الهند ، والصين ، واليابان .

ولا زال بعض الحكام : مستبدين ؛ يجعلون الناس عبيداً لهم ، ولا زالت الشهوة والمال يستعبدان الناس ويذلانهم !

إننا ما زلنا بحاجة إلى العقيدة ، إلى الإيمان بالله ؛ إن أردنا أن نحيا حياة سعيدة مطمئنة !

---

(١) انظر كتاب قصة الإيمان لنديم الجسرى ص ٢٧٥ — ٢٧٦

الجانب الأخلاقي

إن ضرورة الأخلاق الإسلامية تبدو واضحة : حين ندرس النظريات الخلقية لدى الفلاسفة والأخلاقيين فى المجتمعات والأمم الأخرى .

إنهم ذهبوا فى تفسير النظريات الأخلاقية ، والقيم الإنسانية مذاهب شتى ؛ فنهم من فسرها تفسيراً بيولوجياً ، ومنهم من فسرها تفسيراً إنسانياً ، ومنهم من فسرها تفسيراً اجتماعياً ، واختلفوا أيضاً فى معنى الحق ، والخير ، والشر ؛ فأصبحت لهم فيها مذاهب متعددة ، وآراء مختلفة ؛ لا تستند إلى أصل ثابت ومنبع واحد .

الأمر الذى أدى بهم إلى أن يختلفوا فى سلوكهم ، وآرائهم ، واتجاهاتهم فى الحياة .

إن سيادة مفهوم واحد ، فى مجتمع ما ، حول فهم النظرية الخلقية ؛ له أهمية كبرى : ذلك أنه لا يمكن أن يسود التآلف والترابط والتعاون والمحبة ، ولا يتم التوافق الاجتماعى فى مجتمع ما ، أو بين المجتمعات بعضها مع بعض ؛ إلا إذا وجدت هناك الوحدة الأخلاقية ، ووجد اتفاق بين الأفراد : فى السلوك ، والاتجاه ، وفهم الأخلاق .

إذن كيف يمكن أن تسود سعادة اجتماعية فى مجتمع ما ؛ إذا اعتقد بعض أفراده بأن الخير : هو إشباع الغرائزالشهوانية للإنسان ، وأن لاخجل ولا حياء فى طلب اللذة ، ويجب تحقيقها فى ساعتها ؛ لأن تأخيرها عن موعدها : يؤدى إلى الهم والحزن .

ذهب إلى هذا الرأى « ارستبوس » ثم وافقه « ابيقور » فى أن الخير: إشباع اللذة ، ولكنه خالفه فى تعجيل اللذة ؛ إذا كان تعجيلها يؤدى إلى الألم .

واعتقد الآخرون بأن الخير : هو تحقيق أكبر قدر ممكن من المنفعة ؛ لأكبر قدر ممكن من الناس ، كما ذهب إلى هذا « بنتام »

وكيف تسود السعادة : إذا اعتقد بعض الأفراد الإباحية واعتقد الآخرون تحريمها ؟

هذه بعض مظاهر الاختلاف فى المبادىء الأخلاقية .

أما الأخلاق الإسلامية : فليست فيها مفاهيم مختلفة ، ومذاهب متنوعة ؛ فهى تمتاز على الأخلاق عند الفلاسفة والأخلاقيين ؛ بعدة مميزات .

أولى هذه الميزات : وحدة المصدر والصورة ؛ لأن الله تعالى هو الذى وضعها لذا فإنها تتسم بالوحدة ، ومن هنا نرى وحدة المبادىء الأخلاقية بين الشعوب الإسلامية .

ثانيها : أنها مرسومة من عند الله ؛ فلا تتغير ولا تتبدل ؛ لأن هدفها الخير المطلق ، وهو لذلك خير وسيلة !

وما أحوجنا إلى أخلاق ثابتة ؛ فى عصر أصبحت القيم منبعها الناس والفلاسفة خاصة .

وأخيراً : الإخلاص فى السلوك لوجه الله ؛ هو الغاية المنشودة فى الأخلاق الإسلامية .

إن الإسلام يدعو إلى الصدق فى القول ، والأمانة فى المعاملة ، والحياء فى المعاشرة .

وجميع المجتمعات فى جميع العصور ؛ بحاجة إلى هذه المبادىء ، فبذلك تظهر قيمة الأخلاق الإسلامية ، ومدى سموها على النظريات الخلقية الأخرى .

جانب العبادة

إن جانب العبادة من الإسلام : هو الذى يحدد علاقة الإنسان بربه ، وصلته به .

فالعبادة : طريق مرسوم من الله تعالى : يبين لعبده فيه : كيفية الاتصال به ، وقد جعلها الله فرضاً عليه بكيفيات مختلفة ، وعلى فترات متعاقبة طول عمره ؛ ليكون دائم الاتصال به ، ذاكراً له .

إذن فأداؤه العبادات : تذكره الله ولقاءه يوم الحساب . وتركه إياها ؛ يدل على نسيانه .

ولهذا قال تعالى لتاركى هذه الصلة « اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ومأواكم النار ومالكم من ناصرين (١) »

وإذا تذكر الإنسان أنه عبد لخالقه : فلا يمكن أن يكون عبداً لمخلوقه ، كما أن ذكره لله : اطمئنان لقلبه ! « ألا بذكر الله تطمئن القلوب(٢) »

والعبادة : غذاء الروح . إذ أنها فى أثناء أدائها : تشعر بالانشراح ، والراحة ، والانطلاق ، والتسامى على هذا العالم المحسوس ؛ الذى يعتبر مصدر الآلام والغموم والأحزان .

هذا وإن روح التعبد : فطرة فى الإنسان ؛ أودعها الله تعالى فيه منذ خلقه ليعبده .

مصداق ذلك قوله تعالى « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون(٣) » وقال

---

(١) سورة الجاثية ٣٤ (٢) سورة الرعد ٢٨ (٣) سورة الذاريات ٥٦

أيضاً : « فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون(١) »

هذه الفطرة : هى التفسير المعقول لظاهرة التعبد ؛ التى نلمسها بصورة واضحة عبر تاريخ الإنسان منذ قديم الزمان إلى يومنا هذا .

فما من أمة إلا اتخذت لنفسها صورة من صور التعبد .

أما ظهور بعض الثورات على هذه الفطرة من بعض الطوائف ، فى بعض الأمم ، فى فترة من فترات تاريخها الطويل : فذلك ليس بدليل أبداً على انعدام هذه الفطرة ، أو عدم وجودها فى الإنسان . بل ظهورها بعد الثورة عليها فى فترات قليلة متعاقبة ؛ دليل على أصالتها .

هذا وكما أن سبب وجود بعض الثورات على صورة من صور التعبد فى بعض الأمم : قد يكون فساد صورة التعبد الشائعة فيها ، أو بطلان المعبود .

مثل عبادة الأوثان والأصنام ؛ لأن عقلها بدا لا يستسيغ ألوهية ذلك المعبود .

وقد تعود هذه الثورة : إلى فساد الجماعة الثائرة ضدها ؛ لأن الإنسان أحياناً قد يفرط فى الاهتمام بجانب من حياته ؛ اهتماماً يؤدى إلى تناسى الجانب الآخر مدة اهتمامه به ، ومن الممكن أن تكون ظاهرة اتخاذ المعبودات الباطلة . دليلا من أدلة وجود هذه القوة الروحية التعبدية الدافعة فى الإنسان ، هذه القوة قد دفعته إلى عبادة هذه المعبودات — ولو كانت باطلة — عند عدم وجود ما هو أصح وأحق عند هؤلاء .

وإلا فما الذى دفعهم إلى عبادة الأصنام ، والحيوانات والأشجار ؛ وهى كلها لا تعقل شيئاً ، ولا توصل نفعاً ، ولا تدفع ضرراً « هل يسمعونكم إذ تدعون ، أو ينفعونكم أو يضرون(٢) »

---

(١) سورة الروم ٣٠ (٢) سورة الشعراء ٧٢ — ٧٣ .

يقول بعضهم : إن السبب فى ذلك هو الطوطامية(١) غير أن هذا القول غير مسلم به ؛ وإنما هو تفسير من تفسيرات ظاهرة عبادة الإنسان للجمادات .

وعلى كل فرأيي : هو أن الإنسان حين توجه نحو التعبد ، بدافع هذه الفطرة : لم يسترح ، ولم يجد سبيلا يسلى نفسه فيه ؛ إلا باتخاذ معبود يعبده ؛ ولو كان هذا المعبود من أتفه الأشياء التى لا يجدر بالإنسان أن يتذلل أمامها ؛ لو فكر وعقل !

يقول بعض الناس : إن الخوف من الطبيعة ؛ هو الذى جعل الناس يتخذون إلهاً يعبدونه ، ويلجأون إليه ، ويتقربون له بعبادته ؛ حتى يحفظهم من شر الطبيعة وذلك كان فى أطوار الجاهلية التى مر بها الإنسان ؛ غير أن هذا ليس بصحيح عندى ؛ لأن بعض الناس حتى اليوم : لايزالون على هذا النحو؛ حتى أكثر الأمم تقدماً فى العلم ، واتخاذاً لوسائل الوقاية من الطبيعة .

وإذا كانت روح التعبد : فطرة فى الإنسان ؛ فإنه إذا أدى العبادة لله : فقد استجاب لنداء الفطرة ، وحقق مطلباً من مطالبه الروحية ؛ وبذلك يكون قد حقق لنفسه نوعاً من السعادة . لأن الإنسان يشعر بذلك : أنه متصل بخالقه ، وأنه قد أدى واجبه نحوه ، ولذا فهو يكلؤه ، ويرعاه ، ويكافئه على أعماله ؛ إن عاجلا أوآجلا ، وأن أمره دائماً موكول إلى من بيده الأمر ، ومصيره راجع إلى من هو راض عنه !

لكن ليست كل عبادة فيها سعادة روحية ، بل يجب توفر شرطين ؛ ليشعر الإنسان بالسعادة الكاملة من العبادة :

الشرط الأول : أن يكون المعبود : حقاً معقولا ، له أدلة ظاهرة على ألوهيته !

الشرط الثانى : أن تكون صورة العبادة سليمة ؛ وذلك بأن تكون معقولة ، ظاهرة الحكمة من مفاهيمها الكلية على الأقل ، وألا يكون فيها ما تنفر منه

---

(١) تمجيد الإنسان لبعض المخلوقات .

النفس ، ولا يمنع بصورة مستمرة مطلباً من مطالب الإنسان الحقيقية .

فعدم توفر هـذين الشرطين فى العبادات السائدة فى بعض الشعوب : هو السبب لما نلمسه فيها من ظاهرة الاضطراب الروحى ، والثورة على الدين ، وتغيير صور العبادة .

كل هذه الأمور : هى التى تظهر لنـا مدى حاجتنا إلى عبادة توافق صورتها مشيئة المعبود الحق : ومثل هذه العبادة نجدها فى الإسلام وحده .

فإن الإسلام أثبت أولا : وجود المعبود بأدلة عقلية وعلمية وحسية ؛ لامجال للشك فيها ، عند الوقوف على حقيقتها ، وروحها المقنعة ، كما أثبت صفاته وعلاقته بالكون والإنسان .

ثم شكل العبادة بأنواعها ؛ وبذلك أصبح لهـا صورة مجردة ، ثابتة ؛ لادخل للناس فى تشكيلها بالزيادة أو النقص ؛ لأن المعبود الحق ؛ هو الذى بين كيفيتها على حسب مشيئته ، وعلى الصورة التى يرضى عنها .

من أجل هذا كله : يشعر الإنسان بالسعادة الروحية الكاملة ؛ من أداء العبادات الإسـلامية ، وما ذلك إلا لأن المعبود أو الإله الذى نعبده : حق . والعبادة التى نتعبد بهـا : موافقة لمشيئة الله ، ومن ثم فهناك توافق بين الدافع الفطرى ، وبين صورة العبادة .

ومن هنا نعلم أن العبادة : غذاء روحى . وأنها ضرورة للإنسان ؛ ضرورة الطعام للجسم المادى ؛ وإن كان بعض الناس لا يشعر بهذه الضرورة ، وبهذه السعادة ؛ لمرض روحى فيهم . كما أن المزاج الفاسد : لا يستلذ بالطعام الشهى والطيب .

بقى شىء آخر لابد من إضافته هنا : وهو أننا مهما حاولنا إظهار حكمة العبادة ، وفلسفتها ، وروحها ؛ فإنه يجب أن يكون معلوماً لدى الناس أن هـذه ليست كلها ؛ وإنمـا هى جزء من كل : نبديها بقدر ما ندرك ، وهناك حكم يعلمها الله ؛ وقد لاندركها نحن ، وقصر حكمة العبادة على أشياء معينة : له خطورة قد يقلل قيمتها فى نظر بعض الناس .

الجانب القانوني

وميزته على القوانين الأخرى

إن المقارنة تعقد عادة بين شيئين متماثلين ، أو بين أمرين يمكن أن يتماثلا في شيء . فمن هذه الناحية لا يصح عقد مقارنة بين الإسلام وغيره من النظم الإنسانية . إذ لا مماثلة هناك : فإن الإسلام ليس بمنزلة هذه النظم ، ولا يمكن أن ينزل إلى مستواها .

غير أننا لما رأينا أكثر الناس يرون ، أو يعتقدون : أنه ليس في الإسلام قوانين لتنظيم كافة نواحي الحياة ، أو يرون أن ما فيه من النظم : لا يساوي ؛ أو لا يرتقي إلى مستوى النظم الإنسانية الحديثة .

لما رأينا هذا : احتجنا إلى عقد مقارنة لتوضيح الحقيقة ؛ حتى يروا الحقيقة الواضحة .

فمن هذه الناحية ، وبهذه النظرة : رأينا جواز عقد المقارنة إذن :

ولنحاول هنا أن نرسم الفروق الرئيسية بين القانونين : القانون الإسلامي ، والقانون الوضعي . أو بين النظامين : النظام الإسلامي ، والنظام الوضعي .

وقبل بيان ذلك : أود أن أوضح شيئاً واحداً ؛ وهو أن كل قانون يضعه المجتمع لنفسه : يهدف — في الغالب والكثير — إلى تحقيق السعادة لهذا المجتمع ، ومع هذا فإن القوانين كثيراً ما تختلف فيما بينها من حيث مدى سموها ، وتحقيقها الغاية التي وضعت من أجلها . إذ أن بعضها مع اتفاقه في الهدف ؛ قد لا يحققه عند التطبيق .

إما لأنه لا يلائم طبيعة التكوين الإنساني ، أو لأنه لا يراعي بعض الظروف المحيطة بالإنسان ، أو يكون عند الوضع مراعياً طبقة معينة من الناس ، أو ظروفاً مؤقتة في المجتمع .

وإذا ألقينا النظرة الفاحصة على القانون الوضعى ، والقانون الإسلامى ؛ للوقوف على طبيعة كل واحد منهما ، ومدى سمو أحدهما على الآخر ، والفلسفه التى بنى عليها كل واحد منهما : وجدنا هناك فروقاً فى الأساس ، والغاية ، وخصائص أخرى كثيرة .

غير أنه من الممكن لنا أن نلخص أهم الفروق والمميزات ، التى يمتاز بها القانون الإسلامى على القانون الوضعى فى النقط الآتية : —

أولا — أن واضع القانون الإسلامى : هو الله الذى يعلم الماضى ، ويعلم المستقبل والمصير .

أما واضع القانون الوضعى : فهو الإنسان الذى لا يزال يجهل حتى اليوم كثيراً من حقيقة طبيعة التكوين الإنسانى ؛ فضلا عن عدم إدراكه إدراكاً كاملا للظروف المحيطة به فى الواقع ؛ كما أنه يجهل المستقبل كلية .

ولهذا نرى أن القانون الوضعى : دائم التغير ؛ بخلاف ذلك القانون الإسلامى .

ثم إن القانون الإسلامى : مرتبط بالعقيدة ، ولا يرتبط بحكم الحاكم فى قضية من القضايا . بل على الإنسان أن يكون قاضياً على نفسه ؛ لأن الله يعلم الحق ؛ ويقتص من الظالم ؛ ولو حكم الحاكم ببراءته : فإن حكم الحاكم لا يعفيه من الحساب يوم القيامة : وهذا له تأثير كبير على الفرد .

ثانياً — أن القانون الإسلامى : ليس مقيداً بوقت ، أو مكان ، أو مجتمع ؛ بل إنه لكل زمان ومكان ، ولكل مجتمع .

من أجل هذا نرى أن النصوص القانونية فى الإسلام : تتصف بالعموم والمرونة ، وعدم الالتزام بالأشكال .

مثال ذلك : أن نظام الحكم فى الإسلام له قاعدتان كبيرتان ، لا تتغيران ، ولا يعقل تغيرهما :

القاعدة الأولى ـــ الشورى : فالشورى ينبنى عليها نظام الحكم ؛ وهى الدستور الأساسى لكل حكم ديمقراطى .

فيجب أن تؤسس الحكومة على أساس الشورى ؛ فالشكل غير موجود فى القاعدة ؛ فأى شكل يحقق الشورى : يقره الإسلام .

والقاعدة الثانية ـــ العدل : وهو غاية الحكومة ؛ فعلى الحكومة أن تحكم بالعدل ؛ فأى شكل لحكومة تحكم بالعدل : أمر يقره الإسلام . أما القانون الوضعى : فهو مقيد بالظروف ، والزمان ، والبيئة .

ولأن تكون هناك مبادىء صالحة لكل زمان : خير من مبادىء لاتصلح إلا لزمان معين .

ثالثاً ـــ أن القانون الإسلامى : هو الذى يكون المجتمع ، ويصبغه بصبغته ، ويجعله يخضع فى سلوكه للروح التى تحمله ، وبذلك تظهر روح الإسلام فى سلوك المجتمع .

أما القانون الوضعى : فيحدده المجتمع وفقاً لرغبته فى الحياة ، وفهمه لها ، ولذلك تظهر روح المجتمع فى قانونه ، ومن ثم فإن تغييرسلوك المجتمع ، أوفلسفته فى فهم الحياة : يؤدى إلى تغيير قوانينه ، ومن هنا نلمس ظاهرة سرعة تغيير القوانين فى المجتمعات التى تحكم بهذا القانون .

رابعاً ـــ أن القانون الإسلامى : لا يقتصر نظره على إسعاد الإنسانية فى الحياة الدنيا وحدها ؛ وإنما نظره أبعد من هذا ؛ فهو يوجه المجتمع على نحو يؤدى معه إلى سعادته فى الحياة الدنيا والآخرة ؛ لأن تنظيمه للحياة : يجعل الناس يعملون للآخرة كما يعملون للدنيا .

أما القانون الوضعى : فهدفه إسعاد المجتمع فى هذه الحياة الدنيا فقط . لأن واضعيه لايعلمون إلا مظاهر هذه الحياة ، وصدق الله العظيم « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون(١) »

---

(١) سورة الروم آية ٦

من هذه النظرة السريعة إلى طبيعة القانون الإسلامى ؛ ومقارنته بالقوانين الوضعية : تتضح حاجتنا إلى القانون الإسلامى ؛ لشموله على الخصائص الرئيسية الآتية :

الخاصية الأولى : هى عدم تغيره من حين إلى حين آخر ؛ لأن مبادئه الكلية عبارة عن نظريات ثابتة : تسلم بصدقها بداهة العقل ، فهى طريق واضح أمامنا نعالج فى ضوئها الأحكام الجزئية ، والمشاكل التى تحدث من وقت إلى آخر .

الثانية : هى أنه يجعل الناس يخضعون له فى السر والعلن ؛ لأن وراءه اعتقاد يدفع إلى تنفيذه والإخلاص له !

الثالثة : أنه فى تنظيمه ؛ يراعى سعادة الإنسان فى الحياة الدنيا والآخرة ؛ فإن الموت فى نظره : ليس نهاية الإنسان ، وإنما هو جسر لانتقاله من حياة إلى أخرى أسمى !

وبذلك يكون الإنسان سعيداً بعمله ؛ لأنه حين يعمل : لا يعمل من أجل هذه الحياة القصيرة فحسب ، وإنما يعمل قبل كل شىء لحياة أبدية لا نهاية لها .

وما أطيب هذه الأمنية ؛ وما ألذ السعادة فى حياة دائمة مستمرة .

فلسفة الإسلام فى الحياة

إن فلسفة الناس فى الحياة ، ومناهجهم فيها : تتبع وتتولد دائماً تبعاً لإدراكهم لمفهوم الإنسان ، وتصويرهم لطبيعته التركيبية .

ولا شك فى أن كل فلسفة ، أو منهج : يهدف إلى تحقيق السعادة للإنسان فى الحياة ؛ غير أن السعادة لاتتم وفقاً لكل منهاج أو فلسفة ؛ وإنما تتم وتتحقق : إذا وضع المنهاج ، بعد إدراك طبيعة الإنسان ومطالبه الأساسية ، وإدراك جميع ما يحتاج إليه بحكم الطبيعة والفطرة .

كل ذلك وفقاً لقدر معلوم وأسلوب معين .

إذن فإن المنهاج الحقيق المؤدى إلى سعادة الإنسان ، لا بد أن تتوفر فيه الشروط الآتية :

أولا — معرفة طبيعة الإنسان ، والوقوف على جميع مطالبه الفطرية .

ثانياً — تحقيق كل ما يحتاج إليه بطبيعة الخلقة والفطرة .

ثالثاً — أن يكون هذا التحقيق بأسلوب معين ، وكيفية معلومة ؛ من شأنه أن يؤدى إلى السعادة عند تطبيقه تطبيقاً جيداً .

لأن القانون قد يكون سليماً من العيوب فى حد ذاته ؛ ولكن اتخاذ طريقة غير صحيحة لتطبيقه : يؤدى إلى نتيجة سيئة .

بعد إيجاز هذه الحقائق ، ووضع ميزان للمنهج الحقيق : علينا أن نبحث بهذا الميزان ، عن المنهاج المطلوب .

نبحث ذلك فى الأديان ، والفلسفات ، ثم نبحث أخيراً فى الإسلام ؛ وذلك بدون تحيز إلى دين من الأديان ، أو فلسفة من الفلسفات .

وإذا بحثنا فى ديانة البراهمة : وجدنا أن فلسفتها تدعو إلى الاعتناء بالروح فقط ؛ وذلك بالتجرد من الشخصية الظاهرة ، وبتعذيب النفس بالجوع ، والعطش ، والحرمان من مطالب الجسم المادية : مثل النكاح ، وأكل لحم الحيوان ، وعدم مقاومة الشر ؛ لأن مقاومته تؤكد الشخصية .

وهى ترمى من وراء ذلك إلى إفناء الذات الفردية فى الله ؛ إعتقاداً منها أن ذلك هو السبيل الوحيد للخلاص من عذاب الآخرة ؛ إذ لا يستطيع الله حينئذ : معاقبة الإنسان لزوال جسمه المادى ، وحلول روحه فى روح الله .

ولكن هذه الديانة لم تستطع بذلك إسعاد الذين يدينون بها ؛ بل ظل هؤلاء — وهم مئات الملايين من البشر — فى بؤس وشقاء ، وهملة ؛ منكوبين ، مغلوبين على أمرهم . وما ذلك إلا لأنهم اتبعوا منهاجاً منحرفاً : لم يقم على أساس تصور شامل لطبيعة الإنسان . بل قام على أساس تصور جزء واحد من كيان الإنسان ، وإغفال الأجزاء الباقية ، أو جهلها .

وذهبت أيضاً فلسفة الرهبنة المسيحية مذهباً قريباً من هذا الاتجاه . وهو الاتجاه نحو تهذيب الروح ورعايتها ؛ دون الاهتمام بمطالب الجسم المادية فى الحياة .

من أجل هذا : حرموا النكاح على أنفسهم ، واستحبوا الانزواء والعزلة .

وجدير بالذكر : أن الرهبنة ليست من جوهر دين المسيح ، وإنما هى بدعة ابتدعها رجال الدين المسيحى . وأصدق دليل على هذا قوله تعالى « ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم(١) » لأن مثل هذا الاتجاه ، بمثل هذا الأسلوب ؛ يخالف الحكمة ، وذلك يستحيل أن تكون من جوهر دين المسيح ؛ الذى هو جزء من منهاج الله الواحد ؛ كما ذكرنا سابقاً .

وهناك الفلسفة المثالية الأفلاطونية القديمة : كانت تدعو إلى الاهتمام بالعقل ، وتحقيق مطالبه الأساسية : من المعرفة والعلم ، وما كانت تهتم بالنواحى الأخرى من الإنسان .

---

(١) سورة الحديد آية ٢٨

لذا فهم قد عاشوا فى الخيال أكثر مما عاشوا فى الواقع .

عاشوا فى أجزاء العقل بعيداً عن الواقع المادى .

يسرحون بعقولهم فى عالم المثل المخمن ، واعتبروا هذه الحياة : خيالات وهمية ، أو أنها ظل لهذا العالم العلوى المثالى !

ولهذا فإن الاهتمام بهذه الحياة ، وما فى هذا العالم السفلى : اهتمام بما لا يستحق الاهتمام به ، وإنما الذى يستحق الاهتمام ، والغوص فى جوهره ؛ هو ذلك العالم المثالى .

غير أن هذا الاتجاه أيضاً : غير سليم ؛ لأنه تناسى جانب الجسم ، والمادة . ومن ثم فلم يجد هؤلاء فى حياتهم : السعادة الكاملة الشاملة ؛ وإن سعدوا سعادة جزئية : بالاهتمام بلذة العقل .

ولكن الرغبات المادية ، الممثلة جزءاً كبيراً من كيان الإنسان : ظلت تضيق من هذا الاتجاه المنحرف ؛ حتى انفجرت ضدها ثورة فتولد منها مايسمى بالمذهب المادى فى اتجاه الناس .

وهناك فلسفة أخرى : اتجهت طريقاً ثالثاً لسعادة الإنسان فى الحياة ؛ وهى فلسفة مذهب اللذة الحسية ؛ التى تمتد أصولها إلى الفيلسوف اليونانى « ارستبوس »

تدعو هذه الفلسفة : إلى تحقيق مطالب الجسم ؛ لأن السعادة — فى نظرها — إنما تتحقق للإنسان : من إشباع رغباته المادية الشهوانية .

ولهذا فإنها تدعو إلى التمتع بمتع هذه الحياة الحسية الحاضرة . وألا حياء . ولا خجل فى طلب اللذة ، وألا يؤجلها الإنسان إلى وقت آخر ؛ لأن تأجيلها يؤدى إلى القلق والاضطراب .

وهكذا أخذ هذا الاتجاه : جانب الجسم ، ونسى جانب العقل والروح .

ولا شك أن هذه الفلسفة لا تليق بمكانة هذا الإنسان ، لا تليق بمكانته

الأخلاقية السامية ، بل تنزل به إلى منزلة الحيوان المتوحش ؛ فلا يعرف للناس حقوقاً ، ولا حرمات .

فإنه إذا أراد تحقيق سعادته : لم يرتدع عن ارتكاب أفحش الجرائم : من سفك الدماء ، وانتهاك أعراض الناس ، والاعتداء على حقوقهم .

ثم إنها لا تحقق السعادة كما تزعم ؛ إذ ليس من الممكن أن يجد الإنسان كل ما تشتهيه نفسه فى كل حين ؛ إما لانعدام المطلوب عند الطلب ؛ وإما لوجود مانع من الموانع يحول دونه ، ويمنعه من الوصول إليه .

فإن مطالب الإنسان كثيرة ، وموانعها كثيرة أيضاً ، قد يكون أحياناً تحقيقها مستحيلا ، أو قريباً من الاستحالة .

إذن فالسعادة لا يمكن أن تتحقق للإنسان بهذه الفلسفة ، وبهذه الطريقة ؛ بل إن هذه الفلسفة : أقرب إلى الخيال منها إلى الواقع .

ولنفرض أن الإنسان حقق جميع مطالب جسمه فى حينه ؛ فإن حرمان الروح والعقل : يجعله فى قلق ، واضطراب ، من حين إلى آخر .

وقريب من هذه الفلسفة : فلسفة الوجوديين الملحدين ؛ الذين لا يقرون فى حياتهم الجانب الروحى ؛ لعدم اعترافهم بوجود ما يسمى بالروح فى الوجود ، أو فى العالم ؛ وبالتالى فلا وجود للإله الخالق .

ومهما يكن من أمر اعتقاداتهم : فلن يجدوا راحة فى هـذا الاعتقاد : لوجود الروح والإله فى هـذا العالم ؛ فهؤلاء لا بد لهم من أن يجدوا القلق على مصيرهم بعد الموت ؛ وكان هذا الاتجاه قد ساد فى أوربا نتيجة لظروف . إلا أن أوربا تتطلع الآن إلى الروحانية من جديد(١) .

من هذا كله يتبين لنا : أنه لا سعادة للإنسانية بهذا الاتجاه أو ذاك ؛ لأنها اتجاهات قاصرة فى تصوير طبيعة الإنسان ، وطبيعة الحياة الدنيا ؛ وأخيراً طبيعة الوجود بوجه عام .

---

(١) محمد رسول لأتيين دينيه ترجمة الدكتور عبد الحليم محمود ص ٣٦٠

إذن ما الطريقة المثالية التى تؤدى بالإنسانية إلى السعادة ؟

وبعبارة أخرى : ماهو المنهج الذى يجب أن يتبعه الناس ؛ حتى يجدوا السعادة فى حياتهم ؟

إن هذا المنهج — منهاج السعادة الحقيقية — يجب أن نبحث عنه ، وقد بحثنا عنه فى الفلسفات ، وبعض الأديان ؛ فلم نجده كاملا وشاملا ؛ ولنبحث عنه الآن فى الإسلام .

الروح وحقها فى الحياة الإسلامية

وإذا بحثنا فى الإسلام : وجدنا أنه يعترف أولا بوجود الروح ، فهى فى نظره عبارة عن موجود غير مرئى ؛ أودعها الله تعالى فى الإنسان : لمعرفته ، وللاتصال به أولا . ولتدفع الإنسان إلى تحمل مسئولياته الإنسانية فى الحياة ثانياً . وهى وإن كانت غامضة علينا ؛ من حيث كنهها وجوهرها ؛ فإنها ظاهرة من حيث آثارها فى السلوك ، وفاعليتها فى الأبدان . ولما كانت متأصلة فى الإنسان ، فطرية فيه ؛ فلا بد أن يكون لها مطالب تتغذى بها ، وتتقوى بتغذيتها ؛ كما أنها تضعف ، وتضيق بالحرمان منها .

من أجل هذا : فإن الإسلام قرر لها نصيباً من حياة الإنسان ؛ ليؤدى حقها فيه .

إن الحياة الروحية كما قررها الإسلام : هى أداء العبادات المختلفة : من الصلاة ، والصوم ، والحج ، والزكاة ، والذكر دائماً أن الله هو خالقه ، وأنه هو رازقه ، وهو الذى ينبغى أن يستمد منه العون ، ويعتمد عليه ؛ لأن الأمر كله بيده ، وهو على كل شىء قدير !

إن هذه الحياة مؤقتة ؛ ستتحول فى النهاية - إن أحسن الإنسان عمله - إلى حياة أبدية ، ملؤها السعادة والهناء !

غير أن هذه الحياة ليست مطلقة ؛ بل لهـا نصيب محدد من أوقات الإنسان ؛ فلا يسمح الإسلام للمسلم : أن يقضى الليالى والأيام فى العبادة ، فى حجرة البيت ، أو زاوية المسجد ؛ تاركا كسب الرزق ، وراحة النفس إلى جانب ؛ حارماً الجسم من حقوقه الأساسية .

وقد روى أن جماعة من الصحابة رضى الله تعالى عنهم : منهم من حلف على مواصلة الصوم ، ومنهم من حلف على قضاء الليالى بالصلاة ، ومنهم من حرم على نفسه النكاح ؛ فلما سمع الرسول — صلى الله عليه وسلم — ما حدث منهم قال : « ما بال أقوام : حرموا النساء ، والطعام ، والنوم ؟ ألا إنى أنام ، وأصوم ، وأفطر ، وأنكح النساء . فمن رغب عن سنتى فليس منى »

من هذا نرى أن الإسلام : أمر بالاعتدال فى أمر العبادة ؛ وفى ذلك حكمة يدركها من يتدبر فيها .

هذا وللحياة الروحية أثر كبير فى سعادة الإنسان .

ذلك أن الإنسان حين يحيا هذه الحياة : يشعر بالاطمئنان ، والراحة ، والسعادة ؛ فى أعماق قلبه ، لأنه يحس أنه بذلك يرضى الله ، وهو بعد ذلك يتطلع إلى حياة أبدية ؛ حياة صافية خالية من الأحزان والأكدار . أنه يرى أن الموت لا يقضى عليه ، ولا يقطع عليه حياته ؛ بل ينقله من حياة مؤقتة مكدرة ، إلى حياة صافية مستمرة . وأن الأعمال التى يؤديها هنا : سوف تؤتى ثمارها هناك ، وأنه إن لم يستوف حقوقه هنا ، فسوف يستوفيها كاملة هناك !

ولذلك فهو لا يجزع من الموت ، ولا يحزن على ما فاته من لذائذ هذه الحياة ؛ لأنه سوف يرى أحسن منها فى الحياة الأخرى ؛ مادام سائراً فى منهاج الله وطريقه الذى ارتضى لعباده .

هكذا تجعل الحياة الروحية الإنسان سعيداً فى الدنيا ، وسعيداً فى الآخرة .

أما الذين أهملوا الروح وتركوها تصدأ ، ولم يعطوها حقها من الحياة : فهم فى ضيق وحرج فى هذه الحياة : تذبحهم العصبية ، وتقتلهم الانتحارات ، ويزعجهم خوف الموت ، ويقلقهم ضياع حقوقهم ، وعدم استيفائهم ثمار أعمالهم فى الدنيا ؛

فالموت آت من ورائهم ، ولا أمل لهم فى الحياة بعد الموت ؛ لما عرفوا أن مصيرهم أسوأ لسوء سيرتهم ، وكثرة جرائمهم !

العقل

وحظه فى الحياة الإسلامية

كذلك إذا بحثنا عن نصيب العقل فى الحياة الإسلامية : وجدنا أنه لا يفتح أمامه مجال العلم والمعرفة فحسب ، بل إنه كثيراً ما يزوده بالعلم فى مجال ؛ ما كان ليستطيع العقل وحده أن يصل إليه : وهو علم الغيب ، علم ما وراء هذا الكون ، ووراء هذه المحسوسات . قال تعالى « فاذكروا الله كما علمكم مالم تكونوا تعلمون(١) »

حقاً ليس من قدرة العقل أن يدرك ما وراء هذا الكون ، وقد رأينا حيرة الفلاسفة ، الذين حاولوا أن يعلموا منه شيئاً ؛ مع عظم عقولهم ، ومع مابذلوا من مجهودات هى أقصى ما يمكن أن يبذله الإنسان فى هذا الصدد ، ومع قصور الإنسان فى هذا العلم : فإنه دائم التساؤل عنه طوال تاريخه الطويل ؛ رغم ظهور فلسفة « أوجست كونت » ومحاربتها للبحث فى هذا المجال ، وكأن هناك دافع وراء العقل الإنسانى ؛ يدفعه إلى هذا التساؤل ، وهذا البحث ، وربما كان ذلك فطرة إلهية ، أودعها فيه منذ خلقه ؛ ليعرف الإنسان أن الوجود ليس هو هذه المحسوسات فقط ، بل أنه أوسع وأكبر مما ندركه نحن بحواسنا .

ومهما كان من أمر ؛ فإن الإسلام أتى فى هذا العلم بما يشفى غليل الإنسان ، ويكفيه من التساؤل ، ويحفظه من الزلل ، والتيه ؛ ويريحه من عناء البحث ومشقته فى هذا الميدان .

وهو لم يمنع العقل من أن يجول فى هذا الميدان ؛ قبل أن يشرحه له ، ويأتى

---

(١) سورة البقرة آية ٢٣٩

بما فيه من العلم ، كما فعلت فلسفة «كونت» بل كان فعل الإسلام مع العقل فى هذا الميدان ؛ فى غاية الحكمة التى لا يدركها إلا العاقل المفكر .

إذن هنا نوع من التحديد لمجال العقل ، ولكن ليس فيه حرمان العقل من مطلبه ؛ بل إنه يكون عوناً للعقل الإنسانى ، وشفقة ورحمة به .

أما فى مجال الأرض وأجوائها وسمائها ؛ فإن الإسلام فتح أمامه صفحات هذا الكون المحسوس ؛ لأنها مجال إدراكه وميدانه ، الذى يمكن أن يجول فيه ، ويدور بجوانبه المختلفة . ولم يكتف بفتح هذا المجال ؛ بل حثه على البحث فيه ، والنظر إلى نظامه ؛ ليصل به إلى معرفة الله ، ولينتفع منه ، ويفرض سيادته عليه .

قال تعالى «قل انظروا ماذا فى السموات والأرض(١) » و « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق(٢) » . « وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون(٣) » « ومن آياته خلق السموات والأرض ، واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين (٤)» . « إنما يخشى الله من عباده العلماء(٥) » . « هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب(٦) »

هذه طائفة من الآيات التى تحث الناس على النظر فى الكون ، والبحث فيه عن الحقائق والأسرار الكونية .

كذلك يقدر الإنسان العلماء ويعظمهم ؛ لأنهم بعلومهم أجدر بإدراك عظمة الخالق ، والخوف منه ، ومعرفة الغاية من خلق الإنسان ، وخلق الكون كله ، وما خلق هذا وذاك عبثا « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لاترجعون(٧) » « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار(٨) »

---

(١) سورة يونس آية ١٠١
(٢) سورة فصلت آية ٥٣
(٣) سورة النحل آية ١٢
(٤) سورة الروم آية ٢٢
(٥) سورة فاطر آية ٢١
(٦) سورة الزمر آية ٩
(٧) سورة المؤمنين آية ١١٥
(٨) سورة ص آية ٢٧

هذا وقد وضع الإسلام بعض المبادىء أمام العقل : ليسير عليها ، حتى لا يضل في بحثه عن الحقائق ، في ميدان عمله .

من هذه المبادئ : البحث الحر دون الاعتماد على الآراء المسبقة ، والعرف ، والعادات السائدة .

أصدق دليل على ذلك ، هذه الآية « وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين(١) »

فإن الآية تخاطب الكفار فى أمر الدين ، وتقول لهم : فإن الحق لا يتعدد : إما أنكم على حق أو نحن ، فتعالوا نبحث بعقل حر ؛ لنهتدى بواسطته : أينا إلى الحق وأينا إلى الباطل ؛ فنترك الضلالة ونتبع الحق ؛ والحق أحق أن يتبع . فأرادت بذلك إزالة التعصب ، والتشويق إلى التفكير الحر .

ومن أجل هذا نعى الإسلام على أن الذين يتبعون الخرافات معتمدين على السابقين ؛ لا يكون تقليدهم دليلا منطقياً على صحة الأمر ؛ مالم يعتمد على دليل عقلى مقنع : قال تعالى « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون(٢) » ومن هذه المبادىء : التثبت من كل أمر قبل اتباعه والاعتقاد فيه « ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا(٣) »

ومنها أيضاً : عدم اتباع الظن .

فالظن أن يكون هناك دليل قاطع على صحة أمر ما ، ويكون إلى جانب هذا بعض دليل ظنى ؛ يضاد الدليل الأول .

فيجب ترك الدليل الظنى ، وأخذ الدليل القطعى ؛ لأن الظن لا يغنى من الحق شيئاً . قال تعالى « وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغنى من

---

(١) سورة سبأ آية ٢٤ (٢) سورة البقرة آية ١٧٠

(٣) سورة الإسراء آية ٣٦

الحق شيئا(١) » . « فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله(٢) »

ومنها التفكير المنفرد ، بعيداً عن أوهام الجماعة وتمويهاتهم « قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد(٣) »

من هنا نعلم أن الإسلام وضع للعقل منهاجاً ؛ للوصول إلى الحقائق : الدينية والعلمية . وبين له مجال العمل ، ومجال الإيمان .

الجسم وحقه فى الحياة

فى بحثنا السابق : رأينا اعتراف الإسلام بالروح ، والعقل ، وبحقوقهما ؛ والآن سنبحث هنا عن رأيه فى الجسم ، ومدى تقريره لحقه فى الحياة !

إننا إذا بحثنا عن هذا فى الإسلام ؛ وجدنا أن النصوص المتعلقة بالحياة المادية قسمان : قسم يذمها ، والآخر يمدحها .

ولكن ينبغى أن لانظن أن بها تناقضاً ؛ كما قد يبدو للنظرة السطحية ، وإنما هذا الانقسام الظاهرى : يأتى من نظرته إلى الحياة المادية من زاويتين مختلفتين ، ذلك أنه يريد أن يكشف لنا عن منهجه فى الحياة ، وفلسفته فيها .

وربما كان انقسام المسلمين فى الاتجاه نحو الحياة : من إقبال عليها ، وإدبار

---

(١) سورة النجم آية ٢٨ (٢) سورة آل عمران آية ٧

(٣) سورة سبأ آية ٤٦

عنها ؛ نتيجة انقسام هذه النصوص بهذا الشكل حول الحياة المادية .

وإذا شرحنا الزاويتين السابقتين : بدا لنا موقف الإسلام من هذه الحياة بوضوح .

أما الزاوية التى منها ذم الحياة الدنيا : فهى زاوية الماديين ، وهى أن هذه الحياه غاية ؛ لا وسيلة ، وأنها مستقلة لا صلة لها بحياة بعدها ، بل هى الحياة ، ولا حياة بعدها .

حين نظر إليها الإسلام من هذه الزاوية وبهذا الاعتبار : ذمها ، وذم المنهمكين فيها ؛ لأنها حياة عارضة زائلة ؛ مشقتها أكثر من مسرتها ، فهى مليئة بالآلام ، والأحزان ، واليأس ، والخوف ، والاضطراب ؛ وما هى إلا لعب ولهو ، فهى بهذه الصورة ، وبهذه النظرة : لا تساوى شيئاً ، ولا جناح بعوضة ؛ بالنسبة لحياة مقدرة للإنسان بعد موته ؛ لهذا قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « لو كانت الدنيا تعادل عند الله جناح بعوضة ماسقى كافراً منها شربة ماء(١) » .

حقاً إنها لا تساوى جناح بعوضة حين نقيسها بالحياة الأخروية .

من هذه الزاوية . ذم الإسلام هذه الحياة ، وذم الذين يتخذونها غاية لهم ، ومجمع همهم ، ومبلغ سعيهم . فلا يرجون الآخرة من بعدها . قال تعالى : « الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا أولئك فى ضلال بعيد(٢) » .

وكل الآيات والأحاديث التى تذم الحياة وأهلها إنما تذمها بهذا الاعتبار ومن هذه الزواية .

يريد الإسلام بذلك : أن يبين للناس أنه لا ينبغى أن تتخذ هذه الحياة غاية

---

(١) أنظر تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى جـ ٦ ص ٦١١ للإمام الحافظ أبى العلى محمد بن عبدالرحمن بن عبدالرحيم المباركفروى مطبعة المدنى بالقاهرة

(٢) سورة إبراهيم ٣

فى حياتهم ، لأنه أمر لا يليق بهم ؛ فقد خلقوا لهدف أعلى ، وغاية كبرى : هى تلك الحياة الأبدية السعيدة ، التى جاء وصفها فى مئات من الآيات والأحاديث ، هذه الحياة : هى جديرة بأن يعمل المرء من أجلها ، وحقيق أن تتخذ غاية !

والخلاصة : أن أية نظرة تجعل هذه الحياة غاية ؛ لهى نظرة سطحية ، لا تعلو على مستوى الحيوان فى نظر الإسلام !

وأما الزاوية الثانية : فهى أن هذه الحياة ما هى إلا وسيلة لحياة أخرى ، ومقدمة لها .

فمن هذه الزاوية وبهذا الاعتبار نرى الإسلام يمدح الحياة ويهتم بها . وكان اهتمامه بها على النحو الآتى :

أولا : تنظيمها تنظيما اجتماعياً ، واقتصادياً ، وسياسياً ، وقضائياً .

ثانياً : دعوته الناس إلى أخذ نصيبهم من الحياة ؛ من أكل ، وشرب ، وزواج ، وملبس ، ومسكن ؛ وكل ما يحتاج إليه الإنسان بحكم الغريزة والطبع .

بشرط أن تكون فى نطاق الحدود التى رسمها .

قال تعالى : « وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيباً واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون(١) » كما وبخ الذين يمنعون الناس من هذه المتعة التى أخرجها لعباده ، « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون(٢) »

وما أحسن هذه الإشارة هنا : التى تشير إلى أن نعيم هذه الدنيا خلق للمؤمنين وإذا اشترك معهم الكفار فى التمتع به : فسوف لا يشتركون معهم فى نعيم الجنة فى الآخرة ؛ نعيم لا يخالطه غم ولا مشقة !

ولكن يجب ألا يكون التمتع على حساب الدين ؛ فينسوا حقوق الله عليهم :

---

(١) سورة المائده ٨٨ (٢) سورة الأعراف ٣٢

من أداء العبادات ، والشكر له على نعمه ، وينسوا الأخلاق الإنسانية ؛ فى سبيل هذا التمتع ولذة الدنيا !

لذا أمرهم الإسلام مقابل ذلك بالعمل « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون(١) » .

فالعمل واجب من أجل أداء حق الله ، وحق الإنسانية ، وحق الإنسان نفسه : من كسب رزقه ، ورزق من تؤول إليه مؤنته فى الحياة .

وعلى كل ؛ فعمل المؤمن : كله عبادة ؛ ما دام ينظر إلى هذه الحياة من هذه الزاوية ؛ وسار على الطريقة التى رسمها الله له .

مصداق ذلك قول الرسول عليه الصلاة والسلام : ما معناه فى شاب قوى جلد ؛ قد بكر يسعى . حين قال أحد الجالسين معه : ويحه لو كان شبابه وجلده فى سبيل الله ؟ فقال الرسول — صلى الله عليه وسلم — « لا تقولوا هذا فإنه إن كان يسعى على نفسه ليكفها عن المسألة ، ويغنيها عن الناس : فهو فى سبيل الله ، وإن كان يسعى على أبوين ضعيفين أو ذرية ضعاف ليغنيهم : فهو فى سبيل الله » .

وهكذا تكون هذه الحياة كلها سبيل الله إلى الجنة : فمن سار فيها كما يأمره الإسلام : فهو سائر فى طريق الجنة ؛ التى أعدها الله تعالى للسالكين سبيله ؛ فهو داخل فيها فى نهاية المطاف ، بالوعد الذى قطعه الله على نفسه !

وبذلك تكون لهذه الحياة أهمية كبرى ، فى نظر الإسلام ، وتعطى لها قيمة ، لايساويها شىء إلا تلك الحياة الأبدية !

ذلك أنها وإن كانت لا تساوى شيئاً فى حد ذاتها ، بالنسبة لتلك الحياة ؛ إلا أنها لما كان من الممكن أن تشترى بها الجنة ؛ فإن قيمتها تساوى الجنة بهذا الاعتبار !

من هذا : تبين لنا أنه لا تعارض بين هذه النصوص المتعلقة بشئون الحياة الدنيا ؛ وأن النظريتين فيها تمثلان فلسفة الإسلام فى الحياة ، ومنهاجه فيها .

---

(١) سورة التوبة ١٠٥

ومن ثم : تبين لنا أيضاً أن الذين نبذوا الحياة الدنيا ، ولم يعطوا حق الجسم فيها : نصيبه الطبيعى منها ، ورضوا بالكسل والدعة والاتكال على الناس فى الرزق ، استدلالا على موقفهم هذا ، بالآيات التى تذم الحياة وطلابها ، فهؤلاء أخطأوا فى فهم الإسلام ، وقصروا نظرهم على زاوية واحدة وغفلوا عن الأخرى .

ومن هنا ندرك أيضاً سبب خطأ بعض المستشرقين الذين قالوا : إن الإسلام دين مادى ؛ يدعو أهله إلى المتعة والزينة ، ومباهج هذه الحياة المادية .

* * *

بعد هذه الإشارة إلى الحياة العقلية والروحية والمادية فى الإسلام : نرى أن الإسلام أدرك أولا طبيعة التكوين الإنسانى ، ثم لم ينس حق أى جانب من جوانبه فى الحياة .

ولذا فقد أعطى له هذه الحقوق ، وشرع له منهجه فيها ؛ معتدلا متوازناً ؛ فلم يرد أن يطغى العقل على الروح والجسم . ولا الروح على العقل والجسم . ولا الجسم كذلك ؛ كما فعلت الفلسفات الأخرى .

بل إن الإسلام يدعو دائماً إلى التوازن فى الحياة :

التوازن بين الحياة الروحية ، والحياة العقلية ، والحياة المادية .

التوازن بين الإيمان بالغيب ، والإيمان بالمحسوس .

التوازن بين طاقات الإنسان ومطالبها .

التوازن بين العمل من أجل الدنيا ، والعمل من أجل الآخرة .

قال الرسول — صلى الله عليه وسلم — « إن لنفسك عليك حقاً ، وإن لبدنك عليك حقاً ، وإن لزوجك عليك حقاً ، وأعط كل ذى حق حقه »

حقوق الفرد والمجتمع

وتظهر فلسفة الإسلام : مراعاة التوازن بين حقوق الفرد والمجتمع ، بين المصالح الفردية ، والمصالح الاجتماعية ، بين الحقوق الفردية ، والحقوق الجماعية ، بين شخصية الفرد ، وشخصية المجتمع .

وقد وضع نظاماً معتدلا فى هذه الأمور كلها .

فهو لم يجعل المجتمع : هو الموجود الوحيد المنفرد ، وله كيان مستقل فقط ، والأفراد ليست لهم أية شخصية تذكر ؛ كما اتجهت إلى ذلك بعض النظم .

بل جعل الإسلام للمجتمع : شخصية وكياناً مستقلا . كما جعل للفرد : شخصية مستقلة ، فى دائرة خاصة ، داخل نطاق المجتمع .

وفقاً لهذه النظرة : حدد مصلحة المجتمع ، ومصلحة الفرد ؛ فلم يجعل مصلحة الفرد تطغى على مصلحة المجتمع .

وإنما حدد مصلحة الفرد : بحيث لا تضر مصلحة المجتمع .

وكذلك لم يجعل مصلحة المجتمع تطغى على مصلحة الفرد .

فإذا كانت هناك مصلحة للمجتمع ، وفيها ضرر على الفرد : فلا بد من تعويض الفرد عن حقه .

ومن هنا نعلم أن الإسلام لم يجعل الفرد مجرد وسيلة لأغراض اجتماعية ، أو لتحقيق مصلحة اجتماعية ؛ ولو كان فى ذلك تلفاً للفرد وهلاكاً له .

كما لم يعط الإسلام للفرد : حرية مطلقة ، بحيث يعمل لصالحه فقط ؛ دون مراعاة مصلحة الجماعة ، إذ أن الأفراد قد يتحولون إلى قراصنة يمتصون دماء الجماعة ، ويأخذون مكاسبهم بأية طريقة ، وبأى أسلوب .

الفصل الثاني

العوامل التي أدت إلى تشويه روح الإسلام

حاولنا أن نكشف فى الصفحات القليلة السابقة : عن مدى احتياج الإنسانية إلى الإسلام ؛ كمنهاج لحياتهم ، وطريق لسعادتهم !

وفى سبيل ذلك : حاولنا إبراز روح الإسلام فى بعض جوانبه ، وفلسفته فيها ، ثم ميزتها على الفلسفات والأديان الأخرى .

كما عرفنا مدى موافقته لفطرة الإنسان ، وطبيعة خلقته .

* * *

بيد أن هذه الروح : لم تبق على أصالتها فى أذهان الناس ؛ بل شوهت ، وتغيرت ؛ حتى اختلطت روح الإسلام بروح الأديان الأخرى ، وامتزجت فلسفته بفلسفات الفلاسفة .

وعندئذ لا تبدو ميزة الإسلام على هذه الأديان والفلسفات ، ولم تعد تلائم فطرة الناس ، بعد هذا التشويه والتغير .

* * *

هذا التشويه : هو الذى جعل الناس يبتعدون عن الإسلام ، ويتهربون منه ؛ حتى إذا دعوا إليه ، وإلى السير على منهجه : عادوا الداعى ، ولم يلتفتوا إلى دعوته !

وإذا أردنا عودة الناس إلى الإسلام : فلا بد أن نزيل هذا التشويه عن منهاج الإسلام أولا وقبل كل شيء .

ولكن لا يمكن ذلك : إلا بالتعرف على الأسباب والعوامل ؛ التى أدت إلى تشويهه .

لذا بات من واجبنا أن نبحث اليوم عن أهم العوامل ، التى أدت إلى تشويه روح الإسلام ، ثم نبين موقفنا ، وكيفية التخلص من هذه العوامل ؛ حتى تكون دعوتنا إلى الإسلام من جديد : دعوة صافية ، تبحث فى روحه : بعيداً عن هذه العوامل وأثرها فيه .

السياسة

لعبت السياسة دوراً كبيراً : فى تشويه روح الإسلام — منذ ظهوره إلى يومنا هذا — وذلك عند ما اتخذ الإسلام وسيلة لتحقيق المآرب الشخصية ، ومطية للوصول إلى أهداف دنيوية .

غير أن هذه الحقيقة : لا تبدو واضحة ؛ إلا إذا شرحنا السياسة وأنواعها : من سياسة المسلمين ، وسياسة الاستعمار ، وسياسة الاستشراق ، وبينا دور كل واحدة منها فى التشويه . عند ذلك يتجلى ما قلناه بوضوح .

سياسة المسلمين

ظهرت السياسة الإسلامية على مسرح الحياة أول مرة : بعد أن تكونت الدولة الإسلامية فى المدينة ؛ بقيادة الرسول — صلى الله عليه وسلم — وعاشت الأمة الإسلامية تحت قيادته الرشيدة ؛ فى وحدة سياسية ، ولم تظهر خلال عهده كله خلافات ، تمثل جماعات إسلامية سياسية .

أو بعبارة أخرى أحزاب سياسية : تمثل اتجاهات مختلفة .

وبعد وفاته — عليه الصلاة والسلام — مباشرة : ظهر أول خلاف سياسى ؛ فى اجتماع السقيفة : يمثل ثلاث جماعات : الأوس ، والخزرج ، والمهاجرين .

بيد أن ذلك لم يستمر ، ولم يؤد إلى التفرقة فى صفوف الأمة ، واستمرت الحال أيضاً فى هدوء وسكينة ؛ إلى آخر عهد عثمان — رضى الله عنه —

فبعد مقتله مباشرة : ظهرت الخلافات السياسية بين طوائف الأمة ؛ التى جلبت على الإسلام والمسلمين فيما بعد أضراراً بالغة الخطورة ، وآثاراً سيئة ؛ لا تزال تعانى منها الأمة إلى يومنا هذا !

ذلك أن الأمة قد انشقت بعد مقتله إلى حزبين : حزب يناصر علياً ، والآخر يوالى معاوية .

ثم انقسم حزب على إلى حزبين : حزب تشيع له ، وأخذ على عاتقه الدفاع عنه والانتصار له ؛ وسمى شيعياً .

والآخر : خرج عليه ، وسمى هذا الحزب : خوارج .

وبذلك تكونت ثلاثة أحزاب : متخاصمة ومتحاربة . كل واحد يحارب الآخر .

وجاء العباسيون بعد ذلك : يحاربون الأحزاب الثلاثة السابقة .

فكم من معارك دارت بين هؤلاء وأولئك ؛ حتى ذهب ضحيتها مئات الألوف من أبناء هذه الأمة ؛ ما لو قاموا بحرب ضد العدوان الخارجى : لأخضعوا رقاب الأعداء ، وفتحوا العالم ، ونشروا الإسلام فى ربوعه .

كما أنهم لم يتجنبوا إراقة دماء المسلمين فى سبيل تحقيق أغراضهم الشخصية ، كما لم يتجنبوا اتخاذ الإسلام ستاراً أمام أطماعهم الفردية ، وأداة طيعة يؤولون آياته ، ويضعون أحاديث مكذوبة .

كل ذلك لتثبيت اتجاههم ، وتحقيق مزاعمهم .

وقد أدخلوا مبادئ غريبة على الإسلام ثم صبغوها بصبغته لتكسب نصراً .

من هذه المبادئ والمفاهيم الدخيلة : ما ذكره الشيعة من أن علياً — رضى الله عنه — وصى رسول الله — صلى الله عليه وسلم ، وأن الخلافة حق له ولبنيه دون غيرهم من الناس .

وبذلك جعلوا الخلافة وراثية .

وقالوا : إنه لم يمت . وتطرف بعضهم حتى قال : إنه نبى فى التقدير ، وأخطأ جبريل فى التنزيل ، وزاد آخرون فى تطرفهم هذا حتى ألهوه .

ومن المفاهيم الغريبة على الإسلام : ما أتى به الخوارج ، من تكفير المسلمين ، وتحليل دمائهم وأعراضهم !

كما أدخل الأمويون المبدأ الملكى فى نظام الحكم ؛ بدل الشورى ، فأصبح الحكم وراثياً لبنى أمية ؛ فلا يناله غيرهم ، ولو كان أحق منهم وأجدر بهذا المنصب. وبذلك جلبوا على الأمة ويلات وفتناً .

وكل هذه المبادئ التى ذكرناها ، والتى لم نذكرها : لم يراع مبتدعوها عند وضعها حكم الإسلام ، ولا مصلحة الامة ، وإنما راعوا مصلحتهم الشخصية ، وهدفهم الذاتى .

ثم ظهرت بعد هذه الأحزاب السياسية : مذاهب أخرى غير سياسية ، وإن كان ظهورها نتيجة لهذه الأحزاب : مثل المرجئة ، والمعتزلة ، والجبرية ، والأشعرية ، والماتريدية .

وبظهور هذه الفرق : ظهرت آراء ومفاهيم متعددة متناقضة .

وقد اتخذ الجدل والتأويل : وسيلة لتأييد فكرة ، أو للتغلب على الخصم فى أحايين كثيرة .

كما ظهرت بحوث جدلية ، فى موضوعات فرضية ؛ فكان ضررها أكثر من نفعها .

كما كان لحكم بعض الخلفاء دور كبير فى تشويه روح الإسلام ، فى أذهان كثير من الناس .

ذلك أنهم حينما كانوا يحكمون باسم الإسلام : كانوا يحكمون بالظلم والاستبداد ، وقتل الأبرياء ؛ إن اعترضوا طريقهم ، أو أوجسوا منهم خيفة .

مع أن الإسلام يمنع القتل بالشبهة ، ولكن هذا ما كان ليثير اهتمامهم ، بل كان يهمهم سلامة أنفسهم ودولتهم ؛ كيفما كان الأمر .

ومع ذلك : فهم صبغوا أفعالهم هذه بالصبغة الإسلامية ؛ وما كان لتؤثر

أفعالهم هذه فى تشويه حكم الإسـلام ؛ لو أنهم لم يبرروها تبريراً دينياً ، ولم يسندوها إلى حكمه .

ولـكن عند ماسلـكوا هذا المسلك : أصبحت أفعالهم وصمة فى جبين الإسلام ، مما دعا جماعة المستشرقين إلى القول بأن نظام الحكم فى الإسلام : نظام دكتاتورى ، استبدادى : يعطى الحاكم حق الحـكم المطلق ، فما يفعله الحاكم يقره الإسلام .

وهى التى جعلت المسلمين أيضاً يخشون من الحكم الإسلامى ؛ عند ما يطالبون بإعادته إلى شئون الحياة فى العصر الحديث .

هذا ويمـكننا أن نلخص فى النقط الآتية النتائج السيئة التى أدى إليها اتخـاذ الإسلام وسيلة لأهداف سياسية . فيما يأتى :

أولا : تشويه بعض الناس لروح الإسـلام ، وذلك بتأويلات بعيـدة لنصوصه ، وبإدخال مبادئ ليست منه .

والهدف الأساسى من ذلك : هو إثبات مواقفهم المنحرفة ، وتبرير اتجاهاتهم المخالفة للإسلام باتخاذه سنداً لها .

ثانياً : تفريق الأمة : إلى فرق وأحزاب كثيرة ، متعددة الأهداف ، مختلفة الأشكال ؛ حتى كان هدف بعضها : حرب الإسلام والمسلمين ؛ مستتراً وراء شعارات إسلامية .

ثالثاً : أنها أوجدت ثغرات لينفث منها الأعـداء سمومهم ضد الإسـلام والمسلمين .

رابعاً : ابتعاد المسلمين عن دينهم ، ثم عزل الإسلام عن مجال الحياة .

سياسة المستعمرين

لقد استرعت أنظار الأعداء : الحالة التى صار إليها المسلمون — نتيجة للسياسة السابقة — من ابتعادهم عن دينهم ، وعدم تمسكهم بوحدتهم ، وكثرة فرقتهم وخلافاتهم فيما بينهم .

كذلك رأوا أن الحالة التى آل إليها أمر المسلمين لا تساعدهم على الدفاع عن أنفسهم ، ومن ثم يمكن أن يندسوا بين صفوفهم ؛ ليزيدوا الطين بلة .

من أجل هذا : اتجهوا إلى احتلال البلاد الإسلامية ، وابتلاعها شيئاً فشيئاً .

فاحتلوا أولا الأندلس ، ثم الهند والجزائر ؛ وهكذا حتى وقعت البلاد الإسلامية كلها فى قبضتهم ؛ إلا بعض الأجزاء البسيطة منها .

ولكن الاستعمار لم يأمن على استقراره وبقائه : لأن المسلمين ، وإن آلوا إلى هذا المصير ؛ فإن الإسلام ما دام له حيوية ، وقرآن يتلى عليهم بالمفهوم السابق ؛ فلا بد يوماً أن يوقظهم من سباتهم ، فينفضوا الفتور والأوهام ، ويعيدوا مجدهم ، وسلطانهم ، ووحدتهم كما كانوا من قبل .

إذن : ماذا يصنعون ؟ فاتخذوا قراراً وهو : أنه لابد من بذل الجهد لتشويه روح الإسلام ، ولابد من تشكيك المسلمين فى عقيدتهم ، وفى قيمة مبادئهم الدينية ، حتى تموت روح العاطفة الدينية فى نفوسهم .

وحاولوا فى نفس الوقت : رفع قيمة مبادئهم فوق المبادئ الإسلامية .

ومن أجل الوصول إلى هذه الغاية اتخذوا الخطوات الآتية :

إثارة الخلاف بين الفرق الإسلامية .

تشجيع رجال الدين : غير الإسلاميين ، على النيل من المبادئ الإسلامية ، والانتقاص منها .

خلق مذاهب بشعارات إسلامية ، يرأسها بعض الأفراد المنحرفين ، المنتسبين إلى الإسلام . هدفها : نقد الإسلام بالباطل ، وخلق آراء وتفسيرات للإسلام : تخالف روحه ، وتشوه جوهره .

ودور انجلترا فى الهند وباكستان : يمثل هذا الاتجاه خير تمثيل ، فإنها إبان استعمارها هذه البلاد : حثت أولا رجال الدين المعادين للإسلام على الطعن فى المبادىء الإسلامية ، إلى جانب دعايتها المغالية للمسيحية .

ثم عملت على خلق مذهب ، يخضع لحكمها ، ويسير وفقاً لهواها .

وقد اصطنع السيد أحمد خان لهذا الغرض ، فبدأ هذا العميل يعمل دوره الخسيس ضد الإسلام ؛ باسم التقدمية ، وتحت شعارات إسلامية أطلقها على جماعته ومجلته .

فمن أعماله : أنه فسر القرآن على أساس المبادىء الطبيعية ، وفى سبيل ذلك ارتكب أفحش التأويلات ؛ بعد أن حرف كثيراً من المفاهيم الصحيحة عن مواضعها .

وأصدر مجلة باسم : تهذيب الأخلاق . فكان لا ينشر فيها إلا ما يثير الشقاق بين المسلمين ، ولا سيما بين مسلمى الهند والعثمانيين ، وجهر فيها بخلع الأديان .

ولا يقصد منها إلا الإسلام .

ولهذا سمى أتباعه بالدهريين ، أو الطبيعيين .

كما أنشأ مدرسة سماها المدرسة المحمدية : لتنشئة أبناء المسلمين على أفكاره السامة .

ولكن مهما كانت آثاره واضحة ؛ فإنه لم يستطع تحقيق كل ما كانت ترجوه انجلترا من وراء حركته .

ولهذا اتجهوا من جديد : لإنشاء مذهب آخر ؛ عرف بالمذهب القاديانى ، ومؤسسه : ميرزا غلام أحمد .

فقد ادعى هذا أنه نبى ؛ حل فيه روح عيسى ومحمد ، ليفسح المجال لهؤلاء المستعمرين المسيحيين ؛ حتى يتخللوا صفوف المسلمين أولا ، وليجدوا الاستقرار والأمان فى ديار المسلمين ثانياً .

ثم ادعى أنه أوحى إليه ، كما ادعى أن الجهاد ليس معناه العنف والقوة ، وإنما هو وسيلة للإقناع .

وذلك ليميت روح الجهاد والمقاومة فى نفوس المسلمين .

وأخيراً دعا المسلمين إلى الولاء للإنجليز ، وإلى إطاعة حكمهم .

بعد هذا أنشأ مذهباً آخر ، وعرف بالأحمدية ؛ لخدمة أغراض الاستعمار الإنجليزى ، سواء كانت هذه الخدمة بطريقة مباشرة ، أو غير مباشرة .

من هذا كله يبدو لنا بوضوح أنه كان هناك للاستعمار غرضان هامان من وراء هجومه على الإسلام بالوسائل المختلفة :

أحدهما : تشويه روح الإسلام . وثانيهما : الاستقرار فى الوطن الإسلامى .

سياسة المستشرقين

قبل بيان الدوافع التى دفعت المستشرقين إلى دراسة الإسلام ، وأهدافهم منها ؛ نود أن نعرفهم ، ونعرف أصولهم .

فالمستشرقون هؤلاء ، الذين درسوا العلوم الإسلامية ، من الذين لا يدينون بالإسلام ، والذين بحثوا عن أصلهم : وجدوا أكثرهم يهوداً ، ثم يليهم فى الكثرة المسيحيون .

أما الدوافع التى دفعتهم إلى دراسة الإسلام فهى ما يلى :

أولا : محاولتهم دراسة اللغة العبرية ؛ باعتبارها لغة نصوص الديانة المسيحية .

وهذا قادهم إلى دراسة اللغة العربية ؛ لوجود اشتقاق بينهما .

وبعد هزيمة الصليبيين وقيام إصلاح دينى فى أوربا . بدأوا يهتمون بدراسة الإسلام .

ثانياً : القيام بالتبشير ؛ لنشر المسيحية بين المسلمين .

وهنا اتصلت مصلحة المبشرين بالمستشرقين من جهة ، واتصلت مصلحة المستعمرين بالمستشرقين والمبشرين من جهة أخرى .

ذلك أن المستعمر والمبشر : احتاجا إلى المستشرقين لأنهم يعرفون الإسلام ولغته ، فيعرفون كيف يدسون عليه .

وبذلك ازداد نشاطهم ، وزاد اهتمامهم بدراسة الإسلام .

ثالثاً : حب الاطلاع على الثقافة الشرقية (دينية كانت ، أم أدبية ، أم تاريخية)

رابعاً : تشكيك المسلمين فى دينهم ، وتضليلهم .

وأكثر من اتجه نحو هذا الاتجاه(١) من المستشرقين ، هم مستشرقوا اليهود . ثم المسيحيين .

وليس ما نراه اليوم عند هؤلاء بغريب علينا ؛ إذ أن هذا كان غايتهم من قديم الزمان .

ولقد كشف لنا القرآن غايتهم هذه . فقال تعالى « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق(٢) » « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل(٣) » وغير ذلك من الآيات الكثيرة التى نبهتنا إلى نواياهم وأهدافهم السيئة نحو المبادىء الإسلامية .

هذه هى الدوافع التى أدت بهم إلى هذا الموقف من الإسلام ؛ بعد تطورات فى الأهداف .

وأما أهدافهم فى العصر الحديث ؛ فتنحصر فى الهدفين المهمين الآتيين : —

الأول — هو محاربة الإسلام ومحوه من الوجود — إن أمكن — وإلا فإبعاد المسلمين عنه على الأقل .

الثانى — هو إبقاء المسلمين فى تأخرهم ، وخلق التخاذل الروحى فى نفوسهم ؛ وذلك بالوسائل المختلفة التى ذكرنا بعضها فيما مضى ، وسنذكر بعضها الآخر فيما يأتى(٤) :

---

(١) أنظر كتاب الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى للدكتور محمد البهى ص ٥٢٢

(٢) سورة البقرة ١٠٩ (٣) سورة النساء ٤٤

(٤) أنظر الكتاب السابق للدكتور محمد البهى ص ٣٩ .

ولتحقيق الهدف الأول : اتخذوا الوسيلتين الآتيتين : —

الأولى : نقد قيمة المبادىء الإسلامية ؛ بالوسائل الخداعة ، والدعاوى الباطلة ،

فمن ذلك قولهم : إن محمداً ليس رسولا ، وإن القرآن ليس كتاباً منزلا من السماء ، وإنما هو نسخة نسخه محمد من كتابى العهدين القديم والجديد (التوراة والإنجيل)

وأن الإسلام ليس ديناً ؛ لأنه يدعو إلى التمتع بلذائذ الدنيا ، ويتدخل فى تنظيم حياة الناس من جميع الجوانب. فالدين لا يتدخل فى مثل هذه الأمور ، وإنما الدين الحقيقى لا يهتم إلا بجانب العبادة ، أو الجانب الروحى من حياة الإنسان .

ومن ذلك أيضاً قولهم : إن المبادىء الإسلامية غير صالحة للتطبيق على الواقع ، فى العصر الحديث ؛ لأنها تدعو إلى الدعة ، والكسل ، والتأخر ؛ لارتباطه بالقضاء والقدر . وغير ذلك من الدعاوى الباطلة التى يدرك بطلانها من كان عنده أدنى إلمام بحقائق المبادىء الإسلامية .

والثانية : رفع شأن المبادىء المسيحية ؛ وجعلها مقياساً عاماً لمبادئنا فإنهم أسقطوا قيمة المبادىء الإسلامية ؛ حتى أخرجوها من الدين . وقالوا بأنها غير صالحة للتطبيق على الواقع ، ورفعوا قيمة مبادئهم ؛ حتى جعلوها مقياساً عاماً لمبادىء الإسلام . فإن وافق مبدؤنا مبدأهم ؛ يقولون : إنه مبدأ سليم . وإن خالف : فهو باطل .

وقد أشار القرآن إلى اتجاههم هذا فقال : « أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون(١) » وقال أيضاً « أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض(٢) »

فكأن كل مبدأ من مبادئهم : حق لا يتطرق إليه الشك ، وكل مبدأ من مبادئنا لا يتفق معها : باطل .

---

(١) سورة البقرة : ٨٧ (٢) سورة البقرة : ٨٥

ومما يؤسفنا : أن نرى بعض دعاة الإسلام — ولا سيما المثقفين منهم — قد تأثروا باتجاه المستشرقين ؛ فهم حين يرون مبدأ إسلامياً ينقده المستشرقون ؛ لعدم موافقته لأحد مبادئهم ، يقومون بمحاولات بعيدة عن روح الإسلام : للتوفيق بينهما .

كما نجدها فى تعدد الزوجات ؛ حين وجدوه لا يوافق ما عندهم . فقالوا : إن آية التعدد وإن أباحت التعدد ؛ إلا أن الآية الثانية وهى « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم(١) » تنزل الإباحة منزلة الحرام .

ولو أنهم خطوا خطوة أخرى لقالوا : إن الآية الثانية نسخت الأولى .

مثل هذه المحاولات المتأثرة باتجاه المستشرقين ؛ نجد أمثالها كثيراً لدى المسلمين ، فى كثير من القضايا الإسلامية ومبادئها . وهذا الاتجاه منهم أخطر على الإسلام من عمل المستشرقين ، واتجاههم نفس الاتجاه ؛ إذ أنهم بذلك يجعلون مبادىء المستشرقين : مقياساً لمبادئنا ؛ من حيث لا يشعرون .

ثم أن هذا إن دل على شىء ؛ فإنما يدل على قلة الاعتزاز بالإسلام ؛ والغفلة عن أغراض المستشرقين وخدعهم .

ومن وسائل خداع المستشرقين أيضاً : تظاهرهم فى وصف بعض المبادىء الإسلامية بمظهر المنصف العادل ؛ لنصدقهم فى وصفهم الجائر للمبادىء الأخرى . وفى ذلك تشويه مابعده تشويه . إذ أن بعض المبادىء يكون بذلك حقاً ، وبعضها الآخر باطلا فى أذهان الناس .

ومنها أيضاً إنشاؤهم أكاديمية علمية للمقارنة بين الأديان ، وإعلانهم عنها بأنهم سوف لا يخضعون فى أحكامها وقراراتها للأهواء والعواطف الدينية بل سوف يعطون كل ذى حق حقه ؛ كما تهديهم إليه عقولهم وبحوثهم الخاصة لقوانين البحوث العلمية ؛ المجردة من التعصب والانحياز .

---

(١) سورة النساء : ١٢٩ .

مع ذلك نرى أكاديمياتهم العلمية — كما يقولون — لم تغير الزاوية التى كانوا ينظرون منها إلى الإسلام قبل ذلك .

ولا تزال أحكامهم تشعر بأنها صادرة عن التعصب ، والتحيز إلى دينهم ، فإنهم ما داموا قد جعلوا مبادئهم مقياساً عاماً — حتى فى أكاديمياتهم — فلا يمكن أن تظهر الحقائق أو يصلوا إليها ، وبالتالى فلا يوثق بما يصدرون من النتائج العلمية فيها .

إذن : لا بد من أن نحدد موقفنا منهم ؛ وذلك بألا نصدق ما يصدرون ؛ لظهور سوء نياتهم ، وقلبهم للحقائق ، وتغطيتها بالأباطيل ، وأن نعتبر مبادىء الإسلام : مقياساً وميزاناً للمبادىء الأخرى ، ولا نكون بذلك دوجماطقيين(١) على حد تعبيرهم ؛ بل هم دوجماطقيون فى الحقيقة ؛ فإنهم يتظاهرون بمظهر من يحب الفكرة الفلسفية الحرة ، والاتجاه الفلسفى فى البحوث ؛ الذى لا يرى إلا الوصول إلى الحقائق ؛ فإذا بنا نراهم رأى العين : دوجماطقيين فى فكرتهم ، وفى اعتقادهم ، وفى بحوثهم ؛ لا يخضعون للحق وإن ظهر أمامهم كالشمس ، ويتمسكون بمبادئهم ولو كان بطلانها واضحاً .

إلى جانب هذا لا نقف سلبيين ، ولا نكتفى بمجرد الدفاع ، بل نتخذ أسلوب الهجوم الدفاعى :

ندافع عن ديننا ؛ وفى نفس الوقت نهاجم مبادئهم المحرفة عن أصل المنهاج الإلهى ، واتجاهاتهم الخادعة .

كما نبين فى نفس الوقت حكمة مبادئنا ، وفلسفتها الحقيقية .

نعم ما كنا بحاجة إلى هذه الردود ، وكان من الممكن أن نتركهم وما يخوضون ؛ ولكن هجومهم الجائر على الإسلام والمسلمين : لا يتردد صداه بين المستشرقين وحدهم ؛ لأنهم يعلنونه بين جماهير شعوبهم ، بل يتخطون حدودهم ؛ فينشرون

---

(١) الفلسفة الدوجماطقية : هى شدة التعصب لآراء معينة ولا يرى معتنقها غيرها . وكأن ما يراه وما يعتقده هو الحق لا حق غيره .

قدحهم واتهاماتهم بين الأمم كلها ، فبهذا يجعلون الناس يكرهون الإسلام والمسلمين .

من أجل هذا وذاك : لابد من أن نناقشهم ، ونرد عليهم بكل شجاعة واعتزاز؛ ثم نقارن بين مبادئنا ومبادئهم ؛ حتى يرى هؤلاء وأولئك : مدى سمو مبادئنا ، ورفعة شأنها ، وعلوها من جميع الجهات .

وأعتقد أننا لو استطعنا إظهار فلسفة الإسلام — كما هى — فإنها كفيلة بدحض كل الحجج ضدها ، وإخضاع كل متنكر لها .

لهذا فعلينا أن نحدد موقفنا إزاء السياسة بوجه عام ؛ بما يأتى : —

١ — عدم اتخاذ الإسلام فى أى موقف من المواقف : وسيلة لأغراض سياسية ، وإعلان الحرب على من يتخذه وسيلة لها !

٢ — عدم التعاون مع أى حزب ، أو طائفة ، أو مذهب ؛ يتخذ الإسلام شعاراً له إلا بعد البحث عن حقيقته ، وأهدافه البعيدة ، والدوافع التى دفعته إلى تكوينه ؛ لنعرف مدى صلته بالإسلام ، وإخلاصه له .

لأننا قد عرفنا كثيراً من الجماعات : أضرت بالإسلام والمسلمين ؛ باسم الإسلام .

٣ — أن نكون على حذر تام من الأعداء ؛ ولا سيما المستشرقين ، ومن الذين يدعون إلى الإسلام ، ولهم صلات بأعداء الإسلام ؛ لأن أعداء الإسلام من سياستهم : اتخاذ العملاء لهم من المسلمين ؛ لقضاء مآربهم بواسطتهم ؛ ضد الإسلام والمسلمين .

الفلسفة

وكانت الفلسفة : هى العامل الثانى من العوامل التى أدت إلى تعقيد روح الإسلام ، وتشويه جوهره .

ذلك أنها عند ما انتقلت إلى العالم الإسلامى ، بواسطة الترجمة ؛ فإنها قد أثارت موجة من الشك ، انتشرت فى جميع الشعوب الإسلامية .

وكان هذا الشك الذى أثارته : شاملا لجميع جوانب الإسلام ، وكل القيم والمبادىء التى جاء بها .

وليس هذا ببعيد عن الفلسفة ؛ بل إنه نتيجة ضرورية لها فى بداية الطريق ، أو المرحلة الأولى من إنشائها .

لأن من منهجها : الشك فى قيمة الشىء ؛ قبل أن تصدر حكمها عليه .

وبذلك تجعل نفسها حاكماً عاماً على كل القيم ، بل على الوجود كله أيضاً .

وكانت الطامة الكبرى على الإسلام والمسلمين : حين عظمها العلماء الذين اشتغلوا بها وأعطوها حق هذه السلطة العليا ؛ كما فعله البعض . أو رفعوها إلى منزلة الإسلام على الأقل ؛ كما فعله البعض الآخر .

عند ذلك حاولوا التوفيق بين الإسلام والفلسفة ، بين المبادىء الإسلامية والمبادىء الفلسفية ، واتخذوا منهاج الفلسفة ، وبراهينه : فى الاستدلال على العقائد الإسلامية ، وإزالة الشبهات والشكوك فى الأمور الكلية أو الجزئية ؛ التى أثارتها الفلسفة ، أو أثاروها هم أنفسهم بسببها .

ويا ليتهم نجحوا فى التوفيق بين الفلسفة والإسلام فى كل المواضع التى حاولوا التوفيق فيها .

ويا ليتهم استطاعوا إزالة الشكوك عن المواضع التى شككت فيها ، بطريقة مقنعة .

بل فى سبيل التوفيق حرفوا بعض المفاهيم الإسلامية عن مواضعها حيناً وقد أدخلوا فى الإسلام من المبادىء الفلسفية حيناً آخر .

وفى سبيل دفع الشكوك والشبهات ، التى أثارتها الفلسفة : أثاروا شبهات أخرى ؛ بطريقة جدلية ، اتخذوها أسلوباً لهم فى الدفاع والنقاش .

وفى هذه الحالة : اتسعت شقة الخلاف بين العلماء ، وكثرت الفرق فى الأمة ، وبقى كثير من الناس فى حيرة من أمر دينهم ، وبذلك تحققت كهانة أحد مطارنة قبرص ، عند ما استشاره رئيسهم فى إرسال هذه الكتب الفلسفية إلى المأمون ؛ حين طلبها منه .

قال : الرأى أن نستعجل بإنفاذها إليه ؛ فما دخلت هذه العلوم العقلية على دولة شرعية : إلا أفسدتها ، وأوقعت بين علمائها . فأرسلها إليه(١) .

وليس معنى ذلك : أن الإسلام يخالف العقل أو الفلسفة ؛ وإن خالف عقلية بعض الأفراد .

---

(١) أنظر التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية للدكتور شلبي جـ٣ ص ٢٣٠ ولست أقصد من ذكر هذه القصة أن حركة ترجمة العلوم الفلسفية زمن الخليفة المأمون قد تمت نتيجة تخطيط كهنوتى مسيحى إذ أن صيغة الاستشهاد لا تدل على هذا ولأن قبرص لم تكن المصدر الوحيد لهذه الكتب ثم إن المشجع على الترجمة ونقل هذه الكتب كان هو الخليفة المأمون وإنما أقصد وجود التشكيك فى طبيعة هذه العلوم الفلسفية واستغلالها ضد الإسلام أدى إلى نتائج سيئة .

لأن عقلية الأفراد جزئية ، لا تمثل مفهوم العقل ككل ؛ وإلا لما كان هناك اختلاف بين الناس عامة ، وبين الفلاسفة بوجه خاص .

وليس فى استطاعة أحد الاستدلال على أن فلسفة رجل معين ، أو عقليته : يمثل العقل بمفهومه الكلى .

إذن لا نستطيع أن نقول : إن الإسلام يخالف العقل أوالفلسفة ؛ إذا خالف عقل رجل معين أو فلسفته .

وإذن ليس من الحكمة أبداً محاولة التوفيق بين الإسلام والفلسفة فى كل موضع ؛ إذا بدأ هناك تعارض ، وأنه من الخطأ أيضاً محاولة إخضاع المفاهيم الإسلامية كلها ؛ للمفاهيم الفلسفية . إذ لا يكون ذلك فى كثير من الحالات ؛ إلا بحمل النصوص الإسلامية ؛ على مالا تطيق ، وتأويلها تأويلا بعيداً عن روحه .

وهذا لاشك إخراج للدين عن طبيعته السهلة المستساغة ، لدى العامة والخاصة ؛ إلى مفاهيم معقدة .

وكان دافع العلماء إلى التوفيق . هو اعتقادهم عصمة الفلسفة : إلى جانب اعتقادهم عصمة الإسلام .

وإذا كانت الفلسفة حقاً ، والإسلام حقاً ؛ فلا بد أن يتفقا .

ولهذا حاولوا التوفيق بين المبادىء الإسلامية والمبادىء الفلسفية من جهة ، وبين آراء الفلاسفة المختلفة أو المتناقضة من جهة أخرى .

وكان الفارابى ، وابن سينا ، وابن رشد ، وإخوان الصفا : أشخاصاً بارزين بين الذين سلكوا فى هذا الاتجاه .

الاتجاه نحو التوفيق بين الدين والفلسفة ؛ مع تفاوت بينهم فى الإدراك والمحاولة .

وقد أخذت صورة التوفيق : نمطين مختلفين :

النمط الأول :

وهو عبارة عن شرح الحقائق الدينية المجملة ، بالآراء الفلسفية المفصلة .

فابن سينا مثلا : يفسر قوله تعالى « الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم(١) »

فإنه فسر هذه الآية بالأفكار الفلسفية الافلاطونية المحدثة .

ففسر النور : بالخير ، والسموات والأرض : بالكل . والمشكاة : بالعقل الهيولانى(٢) ، والمصباح : بالعقل المستفاد ، والزجاجة : بالواسطة ، وشجرة مباركة زيتونة : بالقوة الفكرية ، ولا شرقية ولا غربية : فسرها بلا القوى المنطقية ولا القوى البهيمية ، والنار : فسرها بالعقل الكلى المدبر للعالم المشاهد(٣)

وهنا مثال للتعسف فى تأويل هذه الآيات ، وتحويل معانيها السهلة ، إلى اصطلاحات فلسفية معقدة .

كما ندرك مدى التشويه الذى يطرأ على معانى الآيات بهذه التفسيرات البعيدة عن روح الإسلام .

---

(١) سورة النور : ٣٥ (٢) رسائل ابن سينا فى الحكمة والطبيعيات

(٣) العقول أربعة « ا » العقل الهيولانى « ب » العقل بالفعل « ج » العقل المستفاد « د » العقل الفعال — أما العقل الهيولانى : فهو قوة مستعدة لقبول ماهيات الموجودات أو المعقولات ، والعقل بالفعل : فهو نفس العقل قد اتحد بالصورة العقلية ، ثم انتقلت إلى الفعل ، والعقل المستفاد : هو العقل بالفعل ، فأصبح مستفاداً — عند ما أدرك الصورة العقلية ، والعقل الفعال : هو العقل الذى يفيض من النفوس الإنسانية .

وإخوان الصفا ؛ قد فسروا : العرش ، والكرسى : بالأفلاك ، فالكرسى : هو الفلك الثامن ، وهو ملك الكواكب الثابتة الواسعة ، المحيط بالأفلاك السبعة تحتها ، أدناها القمر ، ويليه عطارد ، وفوقه الزهرة ، ومن بعده الشمس ، ثم المريخ ، ثم المشترى ، ثم زحل .

كما فسروا السموات السبع بهذه الكواكب السبع المتحركة ، والعرش : هو الفلك التاسع الثابت ، المحيط بجميع الكواكب الثمانية تحته (١) .

كما سار على هذا المنوال : الفارابى ؛ فى تفسير بعض الآيات ، والمفاهيم الإسلامية .

ومن أراد الإطلاع على تفسيرات هؤلاء بالتفصيل : فليرجع إلى كتبهم ؛ ليقف تماماً على مدى التعسف الذى ارتكبوه من أجل التوفيق .

النمط الثانى :

وهو تأويل الحقائق الدينية ؛ بما يتفق مع المبادىء الفلسفية .

وهذا النمط : أخطر من سابقه ؛ لأنه يؤدى إلى الخلط والمزج ، بين الدين والفلسفة ، وبالتالى يؤدى إلى تغيير طبيعة كل واحد منهما .

وكان على رأس الذين اتجهوا هذا الاتجاه فى التوفيق : الفارابى ، وابن سينا ، ثم ابن رشد ، غير أن توفيقه : أدق وأبعد عن التعسف والشطط ؛ الذين وجدناهما عند السابقين .

فقد حاول الفارابى : التوفيق بين رأى الإسلام فى حدوث عالم ، ورأى الفلسفة فى قدمه .

فقال مرة : بحدوثه ؛ باعتباره أثر لله ؛ وذلك إرضاء للدين .

---

(١) رسائل إخوان الصفا القسم الثانى ص ١٧ الرسالة السادسة ص ٨١ مطبعة بامباى .

(٦)

وقال مرة : بقدمه إرضاء للفلاسفة .

وذلك باعتبار أن العالم حدث لافى زمان ؛ فهو فى التصور الزمانى : قديم .

ومثل هذه النتيجة المضطربة ، التى انتهى إليها فى محاولته فى هذه النقطة : كانت النتيجة التى وصل إليها فى كثير من الموضوعات ، مثل الثنائية(١) بين الفلسفة والدين ، وطبيعة النفس ونظرية الفيض ؛ وما إلى ذلك من الموضوعات التى فشل فيها فشلا ذريعاً .

وما فشل إلا لمحاولته التوفيق بين رأيين متناقضين .

هذه بعض الأمثلة قدمناها ؛ لتكون لدينا دليلا على صدق ما ندعى من أن اتجاه التوفيق بين الإسلام والفلسفة فى كل موضوع : اتجاه خاطىء ؛ قد أدى إلى تعقيد الإسلام ، كما أدى إلى تعقيد الفلسفة فى نفس الوقت .

وممن تأثر بالفلسفة أيضاً : كثير من علماء الكلام ، أو التوحيد ؛ وكان تأثرهم هذا واضحاً كل الوضوح فى برهنتهم على وجود الله ، وعلى وحدانيته .

إذ أنهم فى استدلالهم على وجود الله : تأثروا إلى حد كبير بالأدلة الفلسفية الموروثة ؛ وكادوا أن يقصروا انظارهم عليها ، وأن يكتفوا بها .

ذلك أننا عند ما نستقرىء أدلتهم على وجود الله : نجد أنها تهتم وتعتمد على دليل جوهر الفرد ، ودليل الإمكان أو الوجوب ، ودليل العلة والحدوث ، وما أشبه ذلك .

وهذه الأدلة الفلسفية : أدلة معقدة ، جامدة ، بليدة ؛ لا تثير النفس ، ولا تقوى الإيمان .

---

(١) أراد التوفيق بين رأى الإسلام فى الوجود ، وهو عبارة عن الله والعالم الخارجى ، وبين رأى ارسطو فيه بأن الوجود عبارة عن المادة والصورة المتلاحمين ، فقال : الوجود عبارة عن وجوب لم يسبق بإمكان ، والإمكان ؛ سواء وجد بالفعل أو لم يوجد .

وبعبارة أوضح فإنها لا تخلق فى النفس الإيمان القوى ، الإيمان الحى ؛ النابض .

ومن جهة أخرى فإنها غير مستساغة ، لا تتلاءم مع عقلية العامة ، ولا يهضمها إلا كبار العقول .

وأحياناً تترك فى جوانبها : الشكوك والحيرة ، وتؤدى إلى جدل عقيم .

أما الأدلة التى اعتنى بها القرآن ، والتى لم تلق من هؤلاء كبير الاهتمام : هى دليل الاختراع ، ودليل العناية .

هذه الأدلة : هى أدلة القرآن ؛ لأنها أدلة عامة تلائم جميع العقول ، ولا تترك فى جوانبها شيئاً من الشكوك .

إضافة إلى هذا : فإنها أدلة حية ؛ تخلق إيماناً حياً .

وكما تأثروا بالمنهج الفلسفى فى الاستدلال على وجوده تعالى : تأثروا أيضاً بالجدل المنطقى ؛ فى مناقشة العقائد الإسلامية : فبحثوا عن أمور فى العقيدة ، كانوا فى غنى عنها . مثل هل الصفة : عين الموصوف ؛ أم هى زائدة عليه ؟ وهل الوجود : عين الموجود ، أم غيره ؟ وهل صفات الله : قديمة ؛ أم حديثة ؟ وهل كلام الله ، قديم ؛ أم حادث ؟ وهل يخلق الله بإرادة قديمة ، أم حادثة ؟

وفى سبيل الإجابة عنها : قدموا فروضاً عجزوا عن الوصول إلى نتيجة مرضية فى كثير من الموضوعات ؛ مثل هذه البحوث فى مثل هذه الأمور التى تدور حول العقيدة ، قد أدت بهم إلى التفرقة فيما بينهم وبين أتباعهم أيضاً وإلى تعقيد العقيدة الإسلامية ، بعد أن كانت سهلة واضحة .

كما أن هذه التصرفات قد استنفدت منهم مجهودات عقلية لو بذلوها فى ميدان العلم التجريبي : لقطعوا به مرحلة واسعة النطاق ، فأفادهم فى حياتهم المادية من جهة ،

وأفادهم أيضاً فى الوقوف على آيات الله فى الكون ؛ من جهة أخرى(١) .

من أجل هذا : فإن الصحابة — رضى الله عنهم — كانوا يتجنبون البحث فى هذه الأمور ؛ وكانوا يعنون بنشر الإسلام بين الشعوب ، والتفكير فى الآيات الكونية ، إلى جانب عملهم من أجل دنياهم .

ولهذا عاشوا متحدين أقوياء الإيمان ، عمليين بدلا من أن يكونوا جدليين .

وكما تأثر بالفلسفة علماء الكلام ؛ كذلك تأثر بها الصوفية : فأدخلوا فى الإسلام من المفاهيم الفلسفية ، والتصورات الفلسفية البعيدة عن التصور الإسلامى ومفاهيمه .

وسوف نشرح هذا بشىء من التفصيل فى موضوعه الخاص .

ولست أريد بنقد هذا الاتجاه الخاطىء من العلماء : التشنيع عليهم ، والنيل منهم ، والتقليل من جهودهم ؛ فى سبيل الإسلام .

فإننى إن كنت نقدتهم فى عمل من أعمالهم ، أو اتجاه من اتجاهاتهم ؛ فى موقف معين ، أو إزاء دراسة معينة ؛ فليس معنى ذلك أننى أنقدهم فى كل موقف وقفوا فيه ، أو فى كل عمل عملوه .

ولا أقول : إنهم منحرفون عن الدراسة الصحيحة عن قصد ؛ وإنما أقول : ربما أرادوا الصواب : فأخطأوا الطريق الذى يوصلهم إليه ، وأرادوا الدفاع عن الإسلام ؛ فاتخذوا وسيلة ظنوا أنهم بذلك يستطيعون الدفاع بها ، فكانت عكس ما توهموه .

---

(١) يقول الإمام الغزالى فى نقده للمتكلمين « لما نشأت صنعة الكلام وكثر الخوض فيه وطالت المدة تشوق المتكلمون إلى البحث عن الجواهر والأعراض وأحكامها ولكن لما لم يكن ذلك مقصود علمهم لم يبلغ كلامهم فيه الغاية القصوى فلم يحصل منه ما يمحو بالكلية ظلمات الحيرة فى اختلاف الخلق » أنظر كتاب المنقذ من الضلال ص ١٥ مكتبة الجندى بمصر .

وإن كل ما أريده : هو تنبيه علماء اليوم إلى الاتجاه الخاطىء ؛ حتى لا يقعوا فيما وقع فيه السابقون ، وليبعدوا الإسلام عن المفاهيم المعقدة ؛ التى لحقت به من جراء خطئهم .

بعد هذا أود أن أبين أيضاً : أننى لست عدواً للفاسفة ، ولست من المانعين لقراءتها وتدريسها ؛ بل إن الفلسفة فى نظرى قد تساعدنا على فهم فلسفة الإسلام ، كما تساعدنا فى فهم كثير من القضايا الإنسانية فى مراحل تاريخها الطويل ، ومدى تطور التفكير الإنسانى ؛ كلما يقطع مرحلة من مراحل حياته .

هذا إلى أنها تسمو بالفكر الإنسانى على مستوى المحسوسات ، وتأخذ بيده ليطوف به فى أجواء خارج هذا العالم المحسوس .

إن كل ما أريده : هو عدم الخلط بين الفلسفة والإسلام : بين معنى المبادىء الإسلامية ، وبين المبادىء الفلسفية ، بين التصور الإسلامى ، وبين التصور الفلسفى ، وأن لا نتخذ منهج الفلسفة وسيلة لفهم الإسلام وتفسير فلسفته .

كما يجب علينا عدم إخضاع الحقائق الإسلامية ؛ لأحكام الفلسفة وقضاياها .

أو بعبارة أخرى : عدم وزن القيم الإسلامية : بالموازين الفلسفية . وعدم محاولة التوفيق بين الفلسفة والإسلام فى كل قضاياها ، وفى كل موضع . لأن الأولى : ليست بمنزلة الثانية ؛ حتى نكلف أنفسنا بتأويل الآيات أكثر مما تطيق : للتوفيق بينهما .

وأخيراً يجب إظهار فلسفة الإسلام بكامل شخصيتها ؛ مع الإحاطة بكل جوانبها ؛ بعيداً عن خلطها بالفلسفات الأخرى ؛ أيا كان نوعها .

لأن الفلسفة : ليست كلها حق فى ذاتها ، ولا فى كل مبادئها ، وليس الفلاسفة بمعصومين .

فى حين أن الإسلام بخلاف ذلك : فإنه كله حق ؛ لأنه موحى من عند الله . وهذه الحقيقة يجب أن نتنبه إليها دائماً .

اختلاف طبيعة الدين وطبيعة الفلسفة

لقد عرضنا فيما سبق كيف أدى اختلاط الفلسفة بالدين : إلى تشويه روح الدين كما بينا أن محاولة التوفيق بين الدين والفلسفة محاولة خاطئة تؤدى إلى أضرار بالغة الخطورة فى النهاية ذلك أن طبيعة الدين تختلف عن طبيعة الفلسفة من جهتين مهمتين .

الأولى : أن الدين أساسه الوحى ، بينما نجد أن أساس الفلسفة هو الآراء والأفكار أو العقل النسبى ، والوحى والعقل النسبى (العقل البشرى ، عقل محمد وعلى وأبو بكر) قد يتفقان وقد لا يتفقان قد يتعارضان وقد لا يتعارضان فإن عقل الإنسان قد يستطيع إدراك معقولية جميع جوانب الإسلام ومبادئه وقد لا يدرك . وعلى هذا الأساس فعند ما نحاول التوفيق لا بد من إرجاع أحد الطرفين للآخر فمن هنا يجب أن نعتبر أحد الطرفين معياراً ، فإذا جعلنا الدين معياراً فمعنى ذلك أننا أخضعنا الفلسفة للدين ومعنى ذلك أيضاً أننا جعلنا الفلسفة ديناً وإذا جعلنا الفلسفة معياراً فمعنى ذلك أننا أخضعنا الدين للفلسفة أى أننا جعلنا الدين فلسفة .

وإذا جعلنا الطرفين معاً معيارين متقابلين فمعنى ذلك أننا رفعنا مستوى العقل إلى مستوى الوحى وهذا لا يجوز لأن مستوى الوحى فوق مستوى العقل البشرى .

الثانية :

أن الدين لا يقبل التطور من حيث المبادىء العامة فلا نستطيع أن نضيف إليه عقيدة جديدة أو نظرية جديدة ولا نستطيع أن نحذف منه شيئاً وإلا يخرج الدين عن طبيعته الأصلية بمرور الزمان .

أما الفلسفة بخلافه لأن مجالها واسع ويمكن أن يتطور ويمكن أن نضيف

إليها النظريات الجديدة كما وقع بالفعل فى مختلف الفلسفات وكذلك يمكن أن نحذف منها شيئاً .

فإذا نحن وفقنا بين الدين وفلسفة عصر معين فإننا لا بد من أن نغير مفهوم الدين فى كل عصر وفقاً لتطور الفكر الفلسفى . وبذلك نكون قد جعلنا الدين تابعاً ذنبيا للفلسفة .

بقى شىء آخر هام لابد من إيضاحه وهو أن هذه الفلسفة الإسلامية المتداولة الآن إذا كانت ليست فلسفة إسلامية حقاً وإذا كانت لا تعبر عن الفلسفة الإسلامية فما هى الفلسفة الإسلامية ؟

وكيف ندرسها ونستخرجها كاملة إلى حيز الوجود ؟

والإجابة عن السؤال الأول نقول إن الفلسفة الإسلامية هى الفكر الإسلامى الذى يعالج به جميع القضايا الفلسفية أو هى الرأى الإسلامى فى جميع المجالات الفلسفية التى تشمل كل القضايا الإنسانية التى لا يمكن معالجتها عن طريق العلوم التجريبية أو التى لا تخضع وتدخل فى نطاق المعمل العلمى . إذن فهى تشمل دراسة الأخلاق والعقائد والعبادات والسياسة والاقتصاد والدراسات النفسية والروحية والعقلية وهنا قد يقول القائل : إن هذه القضايا قد درسها رجال الإسلام أيضاً من قبلنا !

فالفقهاء درسوا العبادات والاقتصاد والسياسة والمتكلمون درسوا العقائد والصوفية درسوا الأخلاق والفلاسفة المسلمون درسوها من الوجهة الفلسفية .

فماذا يكون موقفنا من هذه الدراسات ومن أين نبدأ وأين ننتهى وكيف يكون منهجنا فى هذه الدراسات هذه الأسئلة الثلاثة مجتمعة تحدد جوانب الإجابة عن السؤال الثانى الذى سألناه من قبل .

وهو كيف ندرس هذه الفلسفة ونستخرجها إلى حيز الوجود كفلسفة متكاملة متناسقة تمثل حقاً الفلسفة الإسلامية الحقيقية ؟ إن منهجنا لدراسة الفلسفة من جديد يتلخص فى النقط التالية : —

أولا : نبدأ من الإسلام ، فنجعل أرضية دراستنا هى الإسلام (النصوص الإسلامية) فكل دارس يأخذ قضية معينة من القضايا السابقة أو جزءاً منها كموضوع الدراسة ويعالجها من وجهة النظر الإسلامية أو من وجهة الفكر الإسلامى . بادئاً من النصوص الإسلامية (القرآن والسنة)

ثانياً : أن نحدد موقفنا من دراسات السابقين باتخاذها وسيلة من وسائل الفهم لنستفيد من مجهود الفهم ولكن لا نأخذ كل دراساتهم مأخذ القبول ولا نتخذها كبداية ولا كنهاية لا نأخذها كبداية نبدأ بها ولا كنهاية ننتهى إليها . وإنما تكون واسطة بين البداية والنهاية .

والخطورة كل الخطورة أن نتخذ هذه الدراسات كبداية ونهاية وإلا نكون قد أدخلنا أنفسنا فى متاهات قد لا نستطيع أن نخرج منها أو نكون قد أدخلنا أنفسنا فى معمعة من الدراسات ندور فيها كحلقة مفرغة لا ندرى أين طرفاها .

وعلى كل ؛ سواء استطعنا أن نخرج منها أو لم نستطع فإننا بذلك لا نستطيع أن نقدم شيئاً سوى أن نقدم رأياً على رأى أو التوفيق بين الرأيين أو إبطال البعض وإبقاء البعض الآخر .

ولكننا بذلك لا نكون قد خدمنا الفلسفة الإسلامية وإنما نكون قد خدمنا فلسفة هؤلاء الرجال . ونحن لا نريد الآن أن نخدم الرجال وإنما نريد أن نخدم الإسلام ولهذا قلت لا بد أن يكون الإسلام هو البداية وهو النهاية فى نفس الوقت .

ثالثاً : أن يكون هدفنا هو معالجة المشاكل الفلسفية المعاصرة المتصلة بحياتنا الراهنة المشاكل الإنسانية الفلسفية التى يعانى منها الناس جميعاً ، نعالج هذه المشاكل من زاوية الفلسفة الإسلامية الصافية لا من زاويتنا ولا من زاوية التيارات الفكرية الفلسفية المعاصرة ولا من زاوية آراء السابقين . وبذلك نستطيع أن نقدم الفلسفة الإسلامية الصافية ونستطيع أن نعالج مشاكلنا عن طريق فلسفتنا الإسلامية وبذلك نجعل الفلسفة الإسلامية تساهم فى حل مشكلاتنا خاصة ومشكلات الإنسانية الفلسفية عامة .

الطرق الصوفية

وكانت الطرق الصوفية أيضاً من جملة العوامل التى أدت إلى تشويه المفاهيم الإسلامية ، ويجب أن يعرف أولا أن هناك فرقاً شاسعاً بين مفهوم التصوف فى الإسلام وبين تصوف المتأخرين الذى يتمثل فى الطرق الصوفية ، فإن هذه الطرق قد انحرفت عن أصلها الإسلامى ، وإذا أشرنا إلى تاريخها بالإيجاز وبينا كيف زاد انحرافها كلما قطعت مرحلة من مراحل حياتها ، عند ذلك فسوف يتضح ما قلنا .

وقبل هذا أود أن أبين مصدر كلمة صوفى :

قيل إنها منسوبة إلى صوفة إسم رجل كان يعبد الله فى البيت الحرام ، وقيل إنها منسوبة إلى الصوف لأن الرسول — صلى الله عليه وسلم — كان يحب لبسه لأنه علامة الخشونة والخضوع ، وقيل إنها منسوبة إلى الصفاء ، وقيل إنها منسوبة إلى سوفيا وهى كلمة يونانية ومعناها حكمة .

غير أن أنسب الأقوال هو أنها منسوبة إلى الصوف وتؤيدها الصيغة الصرفية .

وعلى أى حال فإن التصوف فى عهد الرسول كان عماده الزهد والتعبد والخشوع وغايته نيل رضوان الله والخوف من عقابه وعذابه وإن لم يكن هذا الإسم يطلق على من كانت سيرتهم هذه فى ذلك العهد ، وإنما كان يسمى من عرف بهذه السيرة بالتقى أو العابد .

ثم تطور هذا المفهوم إلى أن صار هدفه هو التعبد لله حباً له لا رغبة فى رضاه ولا طمعاً فى ثوابه ولا خوفاً من عقابه .

وفى المرحلة الثانية من تطوره : تدخلت فيه المبادىء الأجنبية دينية كانت أم فلسفية أو ممزوجة بهما جميعاً .

وفى المرحلة الثالثة : حصل تطور مرة ثانية فى غايته إذ أنها أصبحت تنحصر فى مطالعة الذات الإلهية ومشاهدة الجمال الإلهى الأزلى .

وفى المرحلة الرابعة : وصل إلى قمة الانحراف فاتصل بالنظريات الغريبة على الإسلام المتباينة مع مبادئه مثل نظرية الفناء فى الله ، ووحدة الوجود والاتحاد أو الحلول وغيرها من المبادىء التى انتقلت إلى العالم الإسلامى من الشرق والغرب إبان اتصاله بهما .

وفى المرحلة الأخيرة(١) ظهرت هذه النظريات وتلك المبادىء فى ثياب التصوف عارية مكشوفة وأصبح التصوف اتجاه طائفة أو جماعة من الناس تؤلف فيه الكتب الممزوجة بالمبادىء الإسلامية والفلسفية والديانات الأخرى معاً .

ومن ثم بدأ يختلف المتصوفون فيما بينهم ، ويذهبون مذاهب شتى وطرائق قددا حتى أصبحت هناك عشرات الأنواع من الطريقة الواحدة لها طريقة معينة فى التسبيح والتهليل مع تزمير المزامير وضرب الدف وكل واحدة تدعى لنفسها أنها على حق والأخرى على باطل ، كما يدعى بعضهم بأنه يتصل بالمغيبات ويظهر الخوارق للعادة وأنه يشفى المريض بنفخة فى وجهه أو لمسة بيده ويقولون بعض الكلمات يظهرون بها أنفسهم أنهم أولياء مثل قولهم مافى الجبة إلا الله أو أنا الحق وغيرها من الكلمات التى ما كان الرسول يقولها ولا صحابته الكرام من بعده مع علو منزلتهم وسمو مكانتهم عند الله .

وقد لايرضى عن هذه العبارات أتباعهم لأنهم يحاولون دائماً الدفاع عما صدر منهم من كلمات لا يرضى عنه الإسلام غير أن ما نعلمه من صورة الولاية وسيلة

---

(١) إن تحديد فترات هذا التطور تاريخياً غير ممكن مع ذلك فإن بعضهم حدده على وجه التقريب — المرحلة الثانية كانت حوالى القرن الثانى والثالثة حوالى القرنى الثالث والرابع .

لكسب المعاش وأثر هذه الكلمات فى إظهار أنفسهم بمظهر الولاية فى نفوس الناس .

هذه الأمور وغيرها تدفعنا إلى عدم الثقة بهم ، حقاً نحن لا ننكر وجود الصالحين منهم ، ولكننى عند ما أتكلم إنما أتكلم عن الظاهرة بوجه عام .

ومن مظاهر هذه الطرق الصوفية أنها تدعو إلى ترك الدنيا والعمل من أجلها وعدم الاعتناء بشئون الحياة أو بعبارة أوضح أنها تدعو إلى الكسل والشعوذة ، والدعة والتكاسل والاهتمام بالروح ومطالبها وحدها . وهذا الاتجاه أقرب إلى اتجاه المسيحية منه إلى الإسلام ، ذلك أن المسيحية تتجه دائماً إلى الاعتناء بالروح أما الإسلام فإنه كما يعنى بشئون الروح يعتنى بمثله بأمور الدنيا ، وقد بينا ذلك فى الفصل الأول بالتفصيل .

أضف إلى هذا أن تعدد هذه الطرق تشجع أعداء الإسلام على تشويهه بالوسائل المختلفة حيناً بفتح طريقة ظاهرها إسلامى وباطنها حرب عليه وعلى مبادئه وحيناً آخر بالهجوم عليه بأنه دين تأخر وخرافة .

حتى أن كثيراً من المسلمين الذين يجهلون حقيقة الإسلام أساءوا الظن بالإسلام لأنهم حين رأوا هذه المظاهر الشعوذية من أهل الطرق ظنوا أن ذلك انعكاس لروح الإسلام ، وأن الإسلام يأمر بذلك ويدعو إليه .

بقى أن نبين بعد هذا أن هذه الطرق بدعة مخالفة لسنة العبادة التى أكملها الإسلام شكلا وموضوعاً ، فإن أى تغيير فيها بالزيادة أو النقص يعتبر بدعة ، وإذا أوردنا تعريف البدعة لدى العلماء فسوف نجد أنه منطبق عليها .

فقد عرفها بعض العلماء بأنها طريقة فى الدين مخترعة تضاهى الشريعة يقصد بالسلوك عليها ما يقصد بالطريقة الشرعية أو يقصد بالسلوك عليها المبالغة فى التعبد لله .

وعرفها الآخرون بأنها كل ما وجد وحدث بعد الرسول .

وإن كنت أرجح تعريف الأول لسبب آخر أذكره بعد قليل فإن كلا التعريفين على أية حال ينطويان عليه ، وقد يستدل هؤلاء بصحة هذه الطرق

بدعوى أنها من البدعة الحسنة وقد قال الرسول — صلى الله عليه وسلم — « من سن فى الإسلام سنة حسنة فله أجرها ، وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً ومن سن فى الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً(١) » .

ولكن ليس معنى هذا الحديث أنه يدعو إلى الاختراع فى الدين فإن جانب العبادة والعقيدة لا تقبلان الاختراع بأى حال من الأحوال ، بدليل أن الرسول أنكر على الجماعة الذين عزم بعضهم بأنه يصوم الدهر والآخر أنه يقيم الليل كله والثالث أنه لا ينكح النساء أبداً ، وما ذلك إلا لأنهم تجاوزوا حدود العبادة وزادوا عليها ، وكذلك منع الله الزيادة على العبادة المقررة (٢) فقال تعالى : « قل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا (٣) عن سواء السبيل(٤) » والغلو هو الزيادة والتشدد فى أمر الدين .

وأما مجال الحديث « من سن سنة حسنة . . . الخ » فى جانب التشريع وأمور الدنيا بدليل أن الرسول أباح أعمال العقل فى هذا الميدان فهو حين أرسل معاذ ابن جبل أباح له إعمال عقله فيما لا نص فيه من كتاب أو سنة .

يدل على هذا أيضاً أقواله فى تأبير النخل وحفر الخنادق واختيار أحسن موقع فى حرب بدر مثل هذه الأمور من السنة الحسنة ومنها أيضاً اختراع عمر الديوان واختراع الصحابة تدوين الأحاديث .

وعلى هذا فإن معنى السنة الحسنة هو الإرشاد والهداية وبيان طريق الخير للناس فى شئون الدنيا . والبدعة السيئة اختراع طرق للشر والفساد .

---

(١) فتح البارى الجزء ١٦ صفحة ٦٥ مطبعة مصطفى البابى الحلبى .

(٢) ولا تعتبر النوافل من العبادة الزائدة لأنها مشروعة بالأحاديث صورة ومضموناً .

(٣) والخطاب هنا وإن كان لأهل الكتاب إلا أن الغلو طالما لا يجوز فى دين الله لا يجوز أيضاً فى الاسلام .

(٤) سورة المائدة : ٧٧

هـذا وقد جاء الخطأ حيناً من الخلط بين البدعة الحقيقية والبدعة الإضافية فالبدعة الحقيقية ما خالف الدين شكلا وموضوعاً .

والبدعة الإضافية ما خالف الدين شكلا لا موضوعاً .

وقد غاب على كثير من الناس هذه الحقيقة فظنوا أن البدعة الإضافية مشروعة لهـا سند من الدين لوجود أصل لهـا ثابت فى الدين من حيث الموضوع فليس فيها تغيير إلا من حيث الشكل ، فمثلا نجد أن أصل الصلاة على النبى ثابت بالنص ولـكن تركيبها مع الأذان غير ثابتة فهذا التركيب بدعة إضافية لأنه ثابت موضوعاً لا شكلا .

ومثال آخر وهو أنه إذا كان التسبيح ثابتاً بالنص فليس لأحد أن يزيد فى عدد ركعات الصلاة المفروضة بدعوى أنه بذلك يكثر التسبيح وذكر الله .

روى أن ابن عباس — رضى الله عنه — أنه مر يوماً بمسجد رسول الله — صـلى الله عليه وسلم — فرأى حلقات من الناس وفى أيديهم حصى فيقول أحدهم كبروا مائة فيكبرون مائة ويقول هللوا مائة فيهللون مائة ويقول سبحوا مائة فيسبحون مائة فقال « ما تصنعون » فقالوا « حصى نعد به التكبير والتهليل والتسبيح » فقال « ويح أمة محمد . . ما أسرع هلـكتكم . . أوتفتحوا باب ضـلالة » فقالوا « ما أردنا إلا الخـير » فقال « كم من مريد للخير لم يصبه » وقال أيضاً « اتبعوا ، ولا تبتدعوا فقد كفيتم »

فهذا دليـل على أنه لا يجوز الابتكار فى شئون العبادة وكان ابن عباس قال ذلك استناداً إلى قول الرسول — صلى الله عليه وسلم — « ومن عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد » .

هذا شأن العبادات لا اجتهاد فيها ولا استنباط لأن الله أكملها وحددها شكلا وموضوعاً على الهيئة التى أراد بها عبادته فلا يحق لنا أن نتدخل فيها بتغيير شىء من ذلك كما أو كيفا .

ثم أن العبادة لا تتأثر بتطور الزمان والمكان ، بخلاف ذلك جانب التنظيم

والتشريع من الإسلام ، فإن الإسلام أكمل هذا الجانب من حيث وضع الأسس العامة والنظريات الرئيسية ، أما تحديده من حيث جميع الجزئيات والشكليات فذلك متروك للناس فى كثير من الأحوال ينظمون حياتهم بتنظيمات وشكليات تخضع لهذه الأسس العامة لأن هذا الجانب تتأثر بتطور الزمان وتطور حياة الناس فلا بد أن تكون فيها شىء من المرونة ، ولا يضل الناس مهما تغيرت الحياة وتطورت ماداموا سائرين على هدى هذه الأسس لأنها طريق واضح أمام المسلمين لكل زمان ومكان .

وسوف أتناول هذه النقطة بشىء من التفصيل فى موضعها المناسب فى الفصل الآتى إن شاء الله .

بعد هذا بقى أن نحدد موقفنا من هذا العامل .

موقفنا من هذه الطرق :

ثبت فى هذا البحث مدى خروج الطرق الصوفية عن المنهج الإسلامى سواء كان من حيث اتجاهها العام فى الحياة أو من حيث مزج مفاهيمها بالمبادىء الفلسفية والديانات الأخرى ، أو من حيث إن مراسمها المختلفة التى اخترعوها للتعبد بدعة خارجة عن حدود التعبد فى الإسلام .

وإذا كان الأمر كذلك فعلينا إذن أن نحاربها ونلغيها ونعلن براءة الإسلام منها وأنها تشوه المفاهيم الإسلامية فى الخارج والداخل ، ثم نشرح هذه الحقائق فى جميع الشعوب الإسلامية بكل الوسائل التى يمكن اتخاذها .

يقول بعضهم أن علينا إصلاحها فإن الأخطاء تصلح بالتوجيه والإصلاح لا بالإلغاء والإعدام .

حقاً هذا الاعتراض له وجاهة لو كنا بحاجة إليها ولا يمكن لنا الاستغناء عنها لكنا لسنا بحاجة إليها لأن الإسلام منهاج واحد ، وطريقة واحدة فإن

التمسك به من جميع جوانبه والسير على طريقته ومناهجه هو تطبيق الإسلام على الوجه الصحيح وهو الذى يجمعنا جميعاً فى صف واحد ويوجهنا إلى جهة واحدة أما إنشاء الطرق المختلفة باتجاهات ومراسيم متنوعة فما هى إلا تفريق الأمة وإفشاء الخلاف بين علمائها وانحلال قوى الوحدة فى نفوسها وفتح الثغرات لدخول النفوذ الأجنبى وظهور الآراء المنحرفة فى صفوف المسلمين .

وأخيراً ينبغى أن يلاحظ هنا أن نقدى للطرق الصوفية لا للتصوف أو الحياة الروحية فى نطاق الإسلام ، قد يساء بى الظن أنى بهذا الموقف من الطرق قد ظلمتها غير أننى لو ذكرت لكم رأى الإمام القشيرى فيها — وهو من أعلام التصوف — فى تصوف هؤلاء لظهر أن حكمى عليهم أخف من حكمه . يقول « حصلت فترة فى هذه الطريقة ، لا بل اندرست الطريقة بالحقيقة مضى الشيوخ الذين كان بهم اهتداء ، وقل الشباب الذين كان لهم بسيوفهم وسنتهم اقتداء وزال الورع وطوى بساطه واشتد الطمع وقوى رباطه وارتحل عن القلوب حرمة الشريعة ، فغدوا قلة المبالاة بالدين أوثق ذريعة ورفضوا التمييز بين الحلال والحرام بالصوم والصلاة وركضوا فى ميدان الفضلات وركنوا إلى اتباع الشهوات وقلة المبالاة بتعاطى المحظورات والارتفاع بما يأخذونه من السوقة والنسوان وأصحاب السلطان ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه الأفعال حتى أشاروا إلى أعلى الحقائق ، والأحوال ، وادعوا أنهم تحرروا عن رق الأغلال ، وتحققوا بحقائق الوصال وأنهم قائمون بالحق تجرى عليهم أحكام وهو محو وليس لله عليهم فيما يؤثرونه عتب ولا لوم وأنهم كوشفوا بأسرار الأحدية واختطفوا عنهم بالكلية وزالت عنهم أحكام البشرية وبقوا بعد فنائهم عنهم بأنوار الصمدية والقائل عنهم غيرهم إذا أنطقوا والنائب عنهم سواهم فيما تصرفوا بل صرفوا (١) »

وإذا كان الإمام القشيرى يهاجمهم بما هم عليه فى النصف الأول من القرن

---

(١) أنظر كتاب الرسالة القشيرية جـ ١ ص ٤ للإمام القشيرى طبعة مكتبة محمد على صبيح وأولاده بمصر (الطبعة الأولى) .

الخامس الهجرى فما بالك بما آلت إليه أحوالهم بعده حتى يومنا هذا .

وليس ما قلته هنا مجرد ملاحظات لبعض الطرق بل هو عن دراسة واعية وملاحظات مباشرة للطرق فى مختلف البلاد .

وليس ما قلته هنا أيضاً هو كل نتيجة دراستى وملاحظاتى بل كل ذلك سيأتى موضحاً ومفصلا فى رسالة خاصة أعدها بعنوان « نشأة الطرق الصوفية ، وعلاقتها بالإسلام » وما ههنا إلا مجرد لمحات وإشارات مناسبة لحجم الكتاب ذكرتها كعامل مشوه لروح الإسلام ، وشعارى الأخير هنا هو أن الإسلام طريق واحد لا يحتاج إلى الطرق .

فوضى التأويل

أشرت فى بعض المناسبات فيما سبق — إلى دور فوضى التأويل فى تشويه روح الإسلام ولكن هذه الإشارات لما كانت غير كافية للإحاطة بدورها فى هذا الميدان ، احتجت إلى أن أخصه بعنوان ليكون دورها واضحاً كل الوضوح فى نظر القراء .

وقبل توضيح ذلك أريد بيان الحقيقتين الآتيتين لأنهما بمنزلة ميزان نزن به مدى خطر هذا العامل فى هذا المجال .

أما الحقيقة الأولى : فهى أن الإسلام منهاج جاء ليتبعه الناس ويسيروا عليه بدلا من أن يسير وفقاً لهوى الناس ويسير تبعاً لآرائهم المختلفة ، بل هو ميزان لجميع القيم ، جاء لتوازن به الحقائق والقيم لا ليوزن هو بما يضعه الناس من القيم والمناهج .

وأما الحقيقة الثانية : فهى أن الإسلام يهدف دائماً إلى تحقيق المطالب الأساسية للفرد فى حدود القيم والمبادىء التى جاء بها دون إضرار بمصلحة الغير فلا يسمح للفرد بتحقيق مطالبه بأية طريقة كانت ولو على حساب الآخرين .

غير أن التأويل حين أصبح فوضى ، بدون قيد ولا شرط ، وحين أصبح وسيلة لتبرير الاتجاهات الشخصية بإيجاد سند لها من الدين بأية طريقة كانت ، حين غير المؤولون المنحرفون الحقيقتين السابقتين .

فعكسوا القضية الأولى بقصد أو بغير قصد بجعل آرائهم ميزاناً وأهوائهم ، واتجاهاتهم منهاجاً ، ثم حاولوا إخضاع الآراء الإسلامية لآرائهم ، ومناهجه لمناهجهم .

وبذلك جعلوا الإسلام عرضة لأهوائهم وأستاراً يخفون وراءها سوء نياتهم . وقد حذرنا الله من اتباع هؤلاء لسوء مصيرهم فى النهاية فقال تعالى : « ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا (١) » ، « أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا(٢) » ، « ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدى القوم الظالمين (٣) » . « بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم ، فمن يهدى من أضل الله ومالهم من ناصرين (٤) » ، وغير ذلك من الآيات يندد هذا الاتجاه .

إن الفكرة يجب أن تنبع من قلب الإسلام لا أن تعتنق من الخارج أو من هوى الناس ثم تفرض على الإسلام فرضاً .

وكانت النتيجة الحتمية لهذا الاتجاه الخاطىء أن أصبحت هناك مناهج مختلفة واتجاهات متعددة بين صفوف الأمة الإسلامية ، ومن ثم تعددت الآراء ، وتشتت الأمة وأصبح الإسلام عرضة لآراء وأفكار متناقضة ونظريات متهافتة .

---

(١) سورة الكهف : ٢٨ — (٢) سورة الفرقان : ٤٣

(٣) سورة القصص : ٥٠ — (٤) سورة الروم : ٢٩

وفى ذلك تشويه وتشويش : تشويه لروح الإسلام من جهة ، وتشويش على فكر الأمة من جهة أخرى .

وكذلك تغافلوا عن الحقيقة الثانية كما فعله البعض أو جهلوها كما فعله البعض الآخر .

إن الإسلام لا يتعارض أبداً مع مصلحة الناس كأفراد وجماعات ، ولا يقف أمام مطالبهم ما داموا يطلبونها فى حدود القيم الأخلاقية والدينية وما داموا يطلبونها بطريقة لا تضر الآخرين إن عاجلا أو آجلا .

غير أن بعض الناس يرسم لنفسه طريقاً للوصول إلى هدفه فلا يستشير الإسلام قبل رسم طريقه : أهو موافق للمبادىء الإسلامية أم مخالف لها ؟ ثم يجد الإسلام يعرضه فى هذه الحالة ، إما أن يحاول التوفيق ولو بطريقة تعسفية ، فيحمل الآيات ما لا تطيق ، وبذلك ينفذ طريقته غير الشرعية باسم الشريعة ولو أضرت بمصلحة الأفراد والجماعات .

وإما أن يقول إن الإسلام يعارض مصلحة الناس ، وفى كلتا الحالتين يصبح الإسلام مظنة سوء ، حقاً إن الإسلام يقف أحياناً فى طريق الناس ويعارض بعض الوسائل التى يتخذونها لقضاء مآربهم ، لأن ما فيها من الأضرار أكثر مما فيها من المصلحة التى يلاحظونها ، أو لأن ما يترتب عليها من الأضرار سوف يحدث فى المستقبل وهم لايدركونها ، لأنهم لاينظرون إلا إلى القريب العاجل .

وأحياناً يقف الإسلام سداً أمام مصلحة الفرد من أجل مصلحة المجتمع إذا أراد تحقيق مصلحة على حساب الناس أو بطريقة غير أخلاقية ، فعدم ملاحظة هذه الأمور عمداً أو بغير عمد من الأسباب الرئيسية فى فوضى التأويل ، التى رأينا بعض صور منه لدى إخوان الصفا وبعض الفلاسفة المسلمين أمثال الفارابى وابن سينا .

ويطول بنا المقام لو ذكرنا أمثلة لمثل هذا التأويل عند مختلف الأحزاب السياسية والطوائف وأهل الطرق الصوفية . ولهذا أكتفى بما سبق .

غير أننى أحاول هنا تلخيص دوافع هذا التأويل التعسفى حتى لانقع فيما وقعوا فيه ، فأهم هذه الدوافع أو الأسباب هى ما يلى : —

أولا : محاولة التوفيق بين الإسلام والفلسفة كما رأينا لدى السابقين أو بين الإسلام والمذاهب السياسية أو الاقتصادية كما نراه لدى المحدثين . وقد بينا خطأ هذا الاتجاه بوجه عام .

ثانياً : محاولة إيجاد سند أو دليل من الإسلام للآراء الشخصية أو اتجاهاتها حتى تجد قبولا لدى الجمهور .

ثالثاً : تبرير الاتجاهات المنحرفة ، وقد قال تعالى فى حقهم « فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله(١) »

وعلى كل حال فإنها جميعاً قد أدت إلى نتائج سيئة إذ أنها شوهت روح الإسلام فى نفوس المسلمين وغير المسلمين على السواء ، إذ أن المبادىء الإسلامية أصبحت بذلك متناقضة متضاربة ، وصدق رسول الله حين بين لنا أن مثل هذه التأويلات تؤدى إلى مثل هذه النتيجة فقال : « إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضاً فما عرفتم منه فاعملوا به وما تشابه منه فآمنوا به » قال ذلك بعد أن نزل قوله تعالى « وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به ، كل من عند ربنا (١) »

من أجل هذا كله يجب أن نحدد موقفنا من هذا التأويل . وذلك :

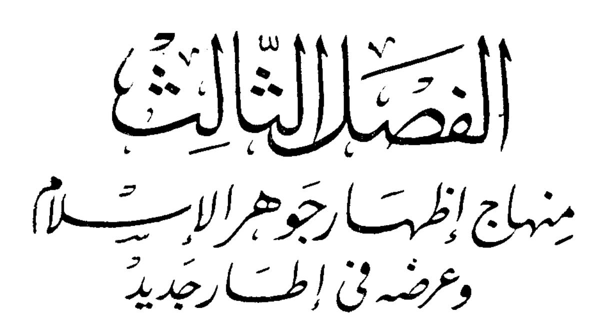
أولا : بإعلان حرب شعواء على فوضى التأويل .

ثانياً : إعادة النظر إلى النصوص ودراستها بعيداً عن الخلافات المذهبية والحزبية متخذين الهدف الأساسى للوصول إلى الفهم الصحيح .

ثالثاً : وضع قانون للتأويل وحدود نسير داخل قيوده .

---

(١) سورة آل عمران : ٧ .


الفصل الثالث
منهاج إظهار جوهر الإسلام
وعرضه في إطار جديد



قمت فى الفصل الأول من هذا البحث بمحاولة للإشارة إلى جوهر الإسـلام فى بعض نواحيه وقيمته الفلسـفية والمنهجية التى لا نستغنى عنها فى أى طور من أطوار حياتنا .

وفى الفصل الذى يليه حاولت بيان كيف شوه جوهر الإسلام بدخول المبادىء ، والمفاهيم التى ليست من الإسـلام فى شىء ، ثم بينت أهم العوامل الرئيسية التى أدت إلى هذا التشويه الذى حجب عن أعين الناس حقيقة الإسلام وجوهره .

وأخيراً أوضحت كيف نستطيع إزالة هذه الرواسب ونتخلص من هذه العوامل وأسبابها السيئة .

غير أن مجرد إزالة الرواسب والعوامل التى أدت إليه لا تـكفى أبداً ، إذ لابد أن نضع المنهاج الذى نتبعه لعرض جوهر هذا الدين عرضاً جديداً ونحدد فى هذا المنهـاج الأساليب التى يجب اتخاذها لعرضه فى ثوب جديد ، ونرسم فيه طريقة لبيان حكم الإسلام على القضايا الراهنة ، والأحداث الواقعة .

ثم نوضح كيف نُظهرُ فلسفة الإسلام فى الوجود ومكانتها بين الفلسفات .

وهذا العمل ضرورة لا يمـكن الاستغناء عنه بأى حال من الأحوال ، إذا أردنا أن نعيد مكانة الإسـلام إلى قلوب المسلمين ، وأن نرفع منزلته لدى غـير المسلمين .

لأننا بذلك نستطيع بيان مدى سمو المبادىء الإسـلامية ، على المبادىء الأخرى السائدة فى العالم فى العصر الحديث .

فمن أجل كل هذا عقدت هذا الفصل وفيما يلى بيان الخطوط العريضة لهذا المنهاج .

بيان طريقة الإسلام في إحياء الإيمان وعاطفته

إن ضعف العقيدة الإسلامية ظاهرة عامة فى جميع الشعوب الإسلامية وإن تفاوت فيما بينها قلة أوكثرة ، فإنها على أية حال مشكلة واضحة عامة لاشك فيها ، وكانت هذه من الأسباب الرئيسية التى أدت إلى ابتعاد المسلمين عن تطبيق الإسلام فى كافة المجالات .

وإذا كان كذلك فلا بد من معالجة هـذه المشكلة وحلها ، ولمعالجة مشكلة ما لا بد أن نتعرف قبـل كل شيء أسبابها ، فما سبب ضعف الإيمـان ، وربما إذا عرفنا سبب قوة إيمان الصحابة عرفنا سبب ضعف إيمـان هذه الشعوب ، إن الصحابة أولئك المسلمون الأوائل كانوا فى ذلك الوقت يجمعون بين أمرين ، بين عبادة الله مع الإيمان المطلق الكامل قد توفرت فيه مقوماته وعناصره كلها ، وبين التفـكير فى الدلائل الـكونية التى تدل على وجود الله مثل انتظام الليـل والنهار وحركة الشمس والقمر وغير ذلك من الآيات الـكثيرة المتعددة التى لا تحصى ولا تعد والتى يعج بها الـكون كله ، الدلائل الحية التى تحرك وجدان الإنسان فكلما يعيد الإنسان النظر إليها فى ساعات تاركاً فيها مشاغل الدنيا جانباً — ازداد إيماناً بالله وخوفاً منه .

هكذا كانوا يتفـكرون فى تلك الآيات أناء الليل ويعملون من أجل المجتمع والدين أطراف النهار ، يتفـكرون فى تلك العجائب البديعة التى إن دلت على شيء فإنما تدل على خالقها وصانعها وهذا هو منهاج الإسلام لتثبيت العقيدة وتقويتها وذلك مرسوم فى قوله تعالى : « الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم

ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار(١) »

ولكن المسلمين بعد ذلك بدأوا يقتصرون على الإيمان التقليدى ، الإيمان الصورى الجامد البليد الرتيب الذى لا يخلق فى الإنسان حركة ولا تفاعلا ولا طاقات كان الأوائل مزودين بها ، وكذلك العبادة التى أصبحت فى نظر أكثر المسلمين اليوم عبارة عن صورة وهيكل أكثر من أن تكون روحاً وإشراقاً .

وهكذا أخذت تنتقل صورة الإيمان وصورة العبادة من جيل إلى جيل فالآباء يلقنون أبناءهم بكلمة الشهادة ويلقنونهم إلى جانب ذلك صورة بعض المبادىء أو قوالبها دون بيان ما فيها من روح وفلسفة ، فبهذا الإيمان التقليدى والعبادة الصورية يعيش المسلمون اليوم ليس فيهم روح الإسلام ، فتظهر فى سلوكهم ، ولا عاطفته فتدفعهم إلى العمل بها والدفاع عنه فى شئون حياتهم المختلفة .

إذن لكى نقضى على هذه المشكلة لا بد أن ندعو إلى التفكير فى آيات الله الكونية والدلائل العقلية وأن نظهر دلالة تلك المكتشفات العلمية الحديثة على وجود الله فلا شك أن إنسان هذا العصر أقرب إلى الوصول إلى الله من إنسان العصور السابقة ؛ إذ ظهرت هناك أدلة قطعية الدلالة على وجوده تعالى كان السابقون غافلين عنها ، مثل وقوف الأرض بهذه العظمة على الهواء ودورانها فيه بانتظام من الذى يمسكها ويديرها على هذا النحو ، قال الله تعالى : « إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده(٢)» وغير ذلك من الآيات التى كشف عنها العلم الحديث فلا يجد الإنسان الباحث الحق أمامها إلا الاعتراف بوجوده والإيمان به إلى جانب ذلك يجب علينا أن نقدم للجمهور فلسفة العبادة وروحها التى طولبنا بأدائها .

كما لا بد من محاولة لإزالة الشكوك التى يثيرها المتشككون حول العقيدة

---

(١) سورة آل عمران : ١٩١ (٢) سورة فاطر : ٤١

والعبادة على حد سواء ، نوضح كل ذلك بالتفصيل وبالأساليب المؤثرة عاطفياً تارة وعقلياً تارة أخرى سواء كان فى مجال الوعظ والإرشاد أو فى مجال التأليف والتعليم . ثم بعد ذلك لابد من التحرر من الجدال ولابد من العمل الإيجابى الخلاق وتنظيم حياتنا على الأسس الدينية والعلمية السليمة .

وذلك خير وسيلة لتثبيت العقيدة وتقوية العاطفة الإسلامية وتقدم حياتنا الروحية والاجتماعية معاً .

وضع الإسلام فى إطار جديد

إن الإسلام قد أصبح فى نظر كثير من الناس شيئاً قديماً أو أسطورة من الأساطير التى تتلى ولا يعمل بها وبذلك أبعدت قوانينه المتعلقة بشئون الحياة ، هذه ظاهرة تكاد تكون عامة فى جميع البلاد الإسلامية كما يلمسها كل من يدرس المجتمع الإسلامى من قريب أو بعيد .

ذلك أن الإطار القديم الذى وضعوا فيه الإسلام ، بدأ يسرى فيه البلى فى بعض أطرافه ، ويظهر النقص فى بعض جوانبه ، وما ذلك إلا لأن الحياة قد تعقدت واتسع نطاقها ؛ لما حدث من الوقائع الكثيرة التى لم تحدث فى القرون الماضية فلا يمكن إدخالها فى الإطار القديم ووضعها فى قوالبه ولفها بذيله وأطرافه ، ولا يعتبر ذلك عيباً فى الإسلام أو نقصاً فى إدراك علمائه السابقين ، لأن الإسلام روح ، ومعنى توسع دائرتها وفقاً للأحداث لتشملها وكان إطار علماء السابقين وفقاً لأحداث عصرهم ، ولاشك فى أن دائرة الأحداث اليوم أكبر وأوسع من دائرة الأحداث السابقة ، ولهذا لابد من توسيع الإطار الإسلامى ، ولا مانع من ذلك بل هو واجب ، فلنا حق فى أن نعمل هذا كما عمل السابقون ، لنا حق فى أن نضع إطاراً شاملا لجميع محتويات عصرنا مقتبساً روحه من روح الإسلام ،

وبذلك نستطيع إظهار مرونة التشريع الإسلامى وحيويته وصلاحيته لكل زمان ومكان ، وإلا فستظل القوانين الإسلامية هكذا بعيدة عن مجال التطبيق ، من هذا يتبين لنا مدى ضرورة وضع الإسلام فى إطار جديد لأنه بدا لنا أن كل محاولة لتطبيق الإطار القديم على جميع محتويات هذا العصر سوف تبوء بالفشل ، والوقائع تشهد بذلك .

وإن الذى يحاول مثل هذه المحاولة غافل عن الوقائع والمشكلات قاصر النظر فمثله كمثل رجل فصل ثوباً للطفل ويريد أن يلبسه وهو قد أصبح رجلا ، وأعتقد أنه لا يظن أحد أننى بذلك أدعو إلى تغيير الإسلام إذ لا يقول أحد أن تغيير ثوب الرجل تغيير لجسمه ولست أقصد أيضاً إلغاء الإطار القديم كلية بل أقصد عمل إطار جديد مزيج من القديم والحديث معاً . ويعالج فى نفس الوقت جميع أحداث وقضايا عصرنا الحديث من وجهة النظر الإسلامية بأساليب تناسب عقلية هذا العصر(١) .

إبراز النظريات الإسلامية فى كافة المجالات

ولو أننا حاولنا الوقوف على مدى فهم المسلمين — بوجه عام — النظريات الإسلامية المتعلقة بجوانب الحياة المختلفة من النظريات الاقتصادية أو الاجتماعية أو السياسية أو القضائية — لوجدنا أن أكثرهم مخطئون فى فهمها ، من ناحيتين ليست إحداهما أقل خطراً من الأخرى .

---

(١) ولست أقصد من تغيير الإطار الإسلامى تغيير المبادىء الإسلامية مثل تعدد الزوجات والطلاق وما إلى ذلك وإنما أقصد تغيير الصيغ والأساليب لعرض الإسلام واستنباط قوانين من روح الإسلام تشمل لجميع مقتضيات العصر الحديث وتعالج جميع قضاياه معالجة إسلامية .

الناحية الأولى : أن هذه المبادىء صارمة قاهرة شديدة لارحمة فيها ولا سيما ما يتعلق فى العقوبات من رجم الزانى وقطع يد السارق زد على هذا أنها تضع الإنسان فى قيود وأغلال من شأنها تقلل من نشاطه ، وحيويته .

وأما الناحية الثانية : أنها لا تصلح للتطبيق على الوقائع الحديثة التى ظهرت فى العصر الحاضر ، هذا ما يعتقده كثير منهم ولا سيما أولو الأمر منهم سواء أجهروا به أم أسروا فإنه على أية حال تدور فى خلجات أنفسهم .

حقاً قد يكون لهم فى ذلك بعض العذر بحكم الظروف والعوامل التى أدت إلى ذلك غير أنه لا عـذر لمن يرى الحقائق ثم لا يعلنها ، ويرى أسباب المشاكل ثم لايحاول القضاء عليها ، من أجل هذا بات من واجبنا الكشف عن هذه الحقائق وإزالة هذه الغشاوة عن أعينهم وهذه الأوهام عن أذهانهم .

وأول خطوة يجب اتخاذها لتحقيق هذه الأمنية ، هو بيان روح النظريات الإسلامية وفلسفتها مع إزالة تلك الرواسب العالقة بها ، مع توضيح أن هناك نظريات يكون شكلها جزءاً منها ، وأخرى لا يكون شكلها جزءاً من مفهومها ولا يلزم رعاية شكلها فى كل زمان أوهى بعبارة أخرى نظريات مجردة غيرشكلية ، فالمهم فيها روحها وجوهرها لا شكلها وهيكلها ، ومثال الأولى نظرية العبادة ومثال الثانية نظرية الحكم ، فإن العبادة لاتصح إلا إذا روعيت فى أدائها قوانينها الشكلية من القيام والقعود والسجود وما شابه ذلك ، أما نظرية الحكم أوالسياسة فلا تتقيد بشكل معين من أشكال الحكومات مثل الخلافة أوالجمهورية وإنما المهم روحها وفلسفتها وهى أن يأتى الحاكم برضى الشعب « بالشورى » ويحكم على أساس العدالة والمساواة والحرية ، فإن تكوين الحكومة يجب أن تكون على أساس الشورى ولكن كيفية تحقيق الشورى فهذا متروك للمصلحة ، لمصلحة الأمة فى كل زمان ومكان ، فسواء انتخبوا الحكومة عن طريق الانتخاب المباشر أو غـير المباشر أو بشكل آخر. فالمطلوب هنا تحقيق الشورى لاالوسيلة التى تحقق الشورى ؛ هذه النقطة مهمة قد نتجت عن عدم التفريق بين الأمرين وطبيعة كل منهما — مشاكل ضخمة فى طريق تطور الأمة الإسلامية .

تميز السنة التشريعية
من السنة غير التشريعية

إن كثيراً من المسلمين ولا سيما غير المتفقهين فى الدين لا يميزون بين نوعين من الأحاديث ، بين نوع يحمل طابع الإلزام والتشريع وهذا يشمل الأحاديث التى لها علاقة وثيقة بمعناها العام وبين نوع لا يحمل طابع الإلزام والتشريع وهو يشمل الأحاديث التى تتعلق بجانب حياة الرسول البشرية من كيفية الأكل والشرب واللباس والنوم والمشى وما يحبه من الأطعمة وأقواله فى الزراعة والتجارة ووصف الأدوية وكيفية تسدل شعر رأسه ولباسه ، وما أشبه ذلك من الأحاديث التى لاعلاقة لها بالشريعة بمعناها العام .

ولقد أقر الرسول نفسه ما نقرره هنا حين قال فى مسألة تأبير النخل أنتم أعلم بأمور دنياكم ، وقال أيضاً عند ما سألوه عن اختياره موقع الحرب فى بدر : أهذا منزل أنزلكه الله أم هو حرب ومكيدة ، فقال : بل هو حرب ومكيدة ، وكان يكره أكل بعض الأطعمة مثل أكل الضب . ومع ذلك كان الصحابة يأكلون منها ، وما كان ينكره عليهم ، وغير ذلك من الأحاديث التى تدل على صحة ما نقرره هنا .

وإذا كانت هناك بعض النصوص تدل على عموم تشريعية كل ما صدر من الرسول — صلى الله عليه وسلم — مثل ، وما ينطق عن الهوى : « إن هو إلا وحى يوحى(١) » فإنها مخصصة فى رأينا بالأحاديث السابقة وإلا كان هناك تناقض وهذا غير موجود فى شريعتنا .

---

(١) سورة النجم ٣ ، ٤

ولست أريد أن أطيل فى الشرح والتفصيل لأن المجال ليس مجاله ، وإنما أريد هنا توضيح أهميـة التمييز بين النوعين من الأحاديث ، وضرورة ذلك للتخلص من أهم المشاكل التى كان سببها الخلط وعدم التمييز بين نوعيها :

أن تقرير هذا الموضوع له أهمية كبرى قد لا يدركها كثير من دعاة الإسلام ولو أننا قلنا إن من أهم الأسباب التى أدت إلى إساءة الظن بالإسلام وإلى وصف مبادئه بالجمود ورجال الدين بالرجعية — هو الخلط بين الأمرين ، ولو قلنا هذا لما ذهبنا بعيداً عن الحقيقة .

ذلك أنه لما تطورت الحياة فى جميع جوانبها المتعددة ، وتقدمت العلوم بفروعها المختلفة وأدى ذلك إلى تغيير مظاهر الحياة وأساليبها ، تنكر المتظاهرون بمظهر علماء الدين ، لهذا كله وقفوا أمام هذا التطور جامدين ، فقالوا إن تغيير شكل اللباس الذى كان يلبسه الرسول — صلى الله عليه وسلم — وتغيير أدوات الأكل الذى كان يأكل بها الرسول — عليه الصلاة والسلام — والأدوية التى كان يصفها ، قالوا كل ذلك مخالف للشريعة لأن الخروج على ما كان عليه الرسول حتى فى مثل هذه الأمور الدنيوية مخالف لسنته وشريعته حتى أن بعضهم هاجم دراسة العلوم غير الإسلامية ، ولما كانت غالبية المسلمين لا يعرفون حقيقة الإسلام صدقوهم فى أقوالهم واتهامهم كل من ينضم إلى صفوف المتقدمين بالفسق والانحراف وما أشبه ذلك من الأوصاف .

ولما اعتقد الناس أن مثل تلك الأمور جزء من الشريعة والمخالفة فيها مخالفة للشريعة ، رسخ فى عقولهم بطريقة شعورية أو غير شعورية أن الإسلام يمنع التقدم ويقف أمام التطور فى أى مظهر كان ، ويأمر الناس دائماً بالرجوع إلى الوراء فى كل شيء ولهذا قيل إن دعاة الإسلام رجعيون ثم تطور هذا الشعور والاعتقاد حتى أدت إلى كراهية الإسلام ودعاته ولا يزال يعتقد كثير من المسلمين فى كثير من الأقطار أنهم وإن أخذوا بأسباب الحضارة فهم فى ذلك مخالفون للشريعة لخروجهم على سنة الرسول من هذه الناحية .

فكيف نزيل هذا الشعور ونمحو هذا المفهوم الخاطىء من الإسلام ؟

لا يكون ذلك فى رأيى إلا بشرح هذا الموضوع شرحاً وافياً وإعلانه فى جميع الأقطار الإسلامية .

قد يقول بعض الناس أننا بتقرير هذا الموضوع وإثبات هذا المفهوم قد يفهم من ذلك أننا نريد إزالة بعض ماهو من الشريعة . والحقيقة أننا نريد أن نزيل من الشريعة الإسلامية ما ليس منها .

وهذا الموضوع له أهمية ينبغى ألا نغفل عنها ، ولا ننسى مع هذا خطورته إذا ترك فوضى ، إذ أنه قد يفتح أمام المنحرفين باباً لإلغاء حكم بعض الأحاديث المتعلقة بجانب التشريع بدعوى أنها ليست منها ، لذا ينبغى أن نكون على حذر تام عند التحديد وبيان حدود كل نوع من هذين النوعين .

إظهار فلسفة الإسلام

إن الفلسفة الإسلامية التى نعنيها هنا ليست هى الفلسفة الإسلامية المتعارفة التى كونها بعض فلاسفة المسلمين أمثال الفارابى وابن سينا وابن ملكا وابن رشد ، لأن هذه الفلسفة فى رأيى ليست فلسفة إسلامية صرفة فى الحقيقة ونفس الأمر ، بل هى فلسفة مؤسسة على أساس الفلسفة الأغريقية القديمة ، ومندمجة مع مبادىء الأديان الأخرى مضافاً إليها آراء فلاسفة المسلمين الخاصة سواء كانت لها سند من الإسلام أو لم يكن .

وإنما الفلسفة الإسلامية التى أدعو إلى إظهارها هى الفلسفة التى تنبع من نفس الإسلام وروحه — بعيداً كل البعد عن الفلسفات الأخرى وآراء الأشخاص الناتجة عنها — الفلسفة التى تمثل شخصية الإسلام وعظمته تمثيلا كاملا لا تقتصر فى جانب معين من جوانبه أو مبادىء معينة مقابلة للمبادىء الفلسفية القديمة

أو الحديثة ، الفلسفة التي تدعو إلى إظهارها هى فلسفة أوسع من المتبادر وأعمق منه .

فهى يجب أن تكون مقابلا لجميع الفلسفات الموجودة فى الدنيا من فلسفة الأغريق ، وفلسفة الأديان المختلفة ، وفلسفة النظم المنتشرة السائدة فى العالم ، لأن الإسلام جاء بنظام متكامل لابديل له ، فى مجال الاعتقاد وفى مجال التشريع ، وفى مجال السياسة ، وفى مجال الحياة كلها ، جاء ليكون منهاجاً عاماً لحياة الناس ، فلا بد من إظهار فلسفة هذا المنهاج ، فلا بد من إظهار فلسفة الإسلام بهذه الكيفية حتى تظهر شخصية فلسفته بارزة كاملة صافية ، وبذلك يكون الإسلام مقنعاً للشاكين فى صلاحيته ومميزاً على تلك الفلسفات والمناهج المتبعة فى العالم ، وهكذا يصبح الإسلام طريقاً واضحاً أمام المؤمنين به وغير المؤمنين به على حد سواء .

وضع المبادئ الإسلامية على طريقة التقنين

وهذه النقطة لها أهمية خاصة ينبغى ألا يغفل عنها دعاة الإسلام ، ذلك أن مما يعاب على القانون الإسلامى بأنه قانون غير منظم وغير مرتب فيصعب على القاضى الرجوع إليه فى أقرب وقت ، زد على هذا أن كل حكم ، فيه آراء مختلفة ومتناقضة قد يتحير القاضى أو الحاكم فى بعض الظروف فى الاختيار والترجيح وقد أدرك بعض العلماء — بعد أن سمعوا هذا الاعتراض — أثره السيء فى نفوس بعض المسلمين ، ولهذا حاولوا جادين تنظيم القوانين الإسلامية على غرار القوانين الوضعية .

غير أنه لما كانت هذه المحاولات فردية فلم يتم فيها إلا بعض الجوانب وبقيت جوانب أخرى أكثر وأوسع .

هذا ويجب أن يكون هذا التنظيم متضمناً أحكام جميع الأحداث الجديدة .

وعند تعارض الآراء فى حكم من الاحكام يختار الرأى الأصلح لحياة المجتمع ولا مانع بعد ذلك من أن يشار إلى الآراء الأخرى فى هامش الكتاب ، لأنه ليس يستبعد أبداً أن يكون رأى منها أصلح فى نفس الحكم من الرأى المختار لظروف شاذة تحكمت على وقوع الحادثة .

بعد هذا يجب ألا ننسى شيئاً آخر له أهميته وهو شرح هذه المبادىء المقننة أو المرتبة بالترتيب الذى ذكرناه شرحاً موجزاً يوضح فيه على الأقل : الأساس الذى يعتمد عليه هذا الحكم ثم الغاية التى يهدف إليها ، وذلك فى إطاره الخاص والإطار الإسلامى العام .

ولا شك أننا إذا سرنا على هذا المنهج فى الشرح والترتيب فهو خير من البحث النظرى وتأليف كتب تحلق فى أجواء الخيال وتدور بين مجرد الأخذ والرد أو الهجوم والدفاع .

ولست أحاول بذلك الحط من قيمة البحث النظرى ، أو تقديمه على العمل الواقعى وإنما أرى أنه لا داعى لتكرار المجهود ما دام العمل الذى أشرت إليه يقوم مقام العملين فى وقت واحد .

الإسلام

يهذب الوقائع ولا يقف حيالها سلبيا

وهذه النقطة لا تقل أهميتها أيضاً عن سابقتها ، بل إننا إذا أدركنا مدى أهميتها وجدنا أنها أخطر من غيرها ، ذلك أنها إذا أسيء فهمها أسيء فهم الإسلام وإذا أحسن كان أكبر نصر للإسلام .

إن أى نظام من الأنظمة يقف أمام الوقائع كلها سداً مانعاً فلابد من أن يكتب له الفشل فى النهاية مهما استمر وقطع من العمر شوطاً بعيداً — ولهذا كان النصر دائماً بجانب النظام الذى يحاول مراعاة الوقائع على أى أساس من الأسس بدون محاربته وعداوته دائماً وأبداً ، وهذا حق نشاهده فى المجالات كلها سواء كان فى مجال التشريع أو فى مجال الفلسفة والعلم ، فنرى أن التشريع الوضعى فى الغرب انتصر على التشريعى البابوى الكنسى والفلسفة المعاصرة انتصرت على الفلسفة المثالية الأغريقية القديمة والمنهج العلمى الواقعى أو التجريبى انتصر على المنهج العلمى النظرى ، وما ذلك إلا لأن الأولى أكثر تفاهما وتجاوباً من الأخرى .

وفى مجال الإسلام كذلك فإن الذين أساءوا فهم الإسلام جعلوه سلبياً تجاه جميع الأحداث والتطورات الطبيعية فى مختلف مجالات الحياة الإنسانية ، حين جعلوا الإسلام سداً أمام الواقع ذلك لأن هذه الوقائع لما تراكمت وتضخمت انهار أمامها هؤلاء وأبعد الإسلام عن مجال الحياة ، ومن ثم جلب هذا التصادم من ورائه فكرة هى أن الإسلام يدعو إلى الجمود وأن رجال الدين جامدون .

لذا أصبح من واجبنا اليوم أن نبين بصراحة ووضوح أن الإسلام لا يقف

دائماً أمام الوقائع والتغيرات والتطورات جامداً وإنما يقف منها موقفه المهذب فيهذبها ويختار العناصر النافعة منها ويحارب الضارة .

هذا وأحب هنا أن أوضح أن هناك بعض الوقائع فى حياة المجتمع تبدو لبعض الناس أنها وقائع ضرورية تفرض نفسها على المجتمع فرضاً وهى فى نفس الوقت لا يقرها الإسلام فيبدو هنا نوع من التعارض بين الإسلام وبين ما آلت إليه حياة المجتمع .

فهنا يبدأ الصراع بين رجال الدين ذوى البصيرة بالأمور الدينية وبعض الرجال الواقعيين المعاصرين ، فالأولون يقفون ضدها لأن الإسلام يمنعها ولأنها ليست لها ضرورة ويمكن الاستغناء عنها بطريقة أو أخرى ، والآخرون يقولون إنها أصبحت ضرورة لا مفر منها وإنها من عوامل التقدم والتطور فى حياة الناس ومن ثم يصفون الأولين بأنهم جامدون .

مثال ذلك الأفلام أو السينما ، فإن الإسلام يعتبر ذلك آلة يمكن استخدامها فى الخير كما يمكن استخدامها فى الشر فهو يبيح استخدامها فى الخير ولا يبيح استخدامها فى الشر ، فمثلا لا يمنع عرض أفلام حروب الأمم وعرض مدن العالم والمجتمعات المختلفة وحياة الناس الخيرين وجهود الأبطال فى سبيل الإنسانية وما شابه ذلك ، ويمنع الأفلام التى تثير الغرائز الجنسية وترخص الأعراض وتفسد المجتمع وتسوقه إلى الفساد . فهذا مثال : كيف أن الإسلام يهذب الوقائع .

وقد يمنع الإسلام بعض التغيرات لأنها ضارة على الحياة الإسلامية مثل تبرج النساء لأنه لا يأتى منه أية فائدة إلى المجتمع ، وأما أضراره فكثيرة لا تخفى حتى على الناس السذج فضلا عن الناس الاجتماعيين الواعين البصرين — لذا فليس من حق أحد أن يصف الذين يحاربون التبرج بأنهم جامدون ، وماذا يؤثر على الحياة لو احتشمت النساء فلا يظهر منهن إلا الوجه والكفين كالرجال وما ضرورتها فى الحياة ، أما الذين فى قلوبهم زيغ ويحبون أن تشيع الفاحشة بين الذين آمنوا يقولون هذا تقدم وحضارة وأنه أصبح ضرورة .

فهم يريدون أن يتستروا وراء ستار ولكن الستار شفاف تظهر فيه نواياهم المنحرفة .

هذا ويحرم الإسلام أحياناً وضعاً من الأوضاع أو عملا من الأعمال لأنه لا يتلاءم مع روح منهجه ولكنه يبيح عملا آخر يحقق نفس الغرض .

إذ ليس من هدف الإسلام تحقيق المنافع المادية الدنيوية للناس فقط بل يمتد هدفه إلى تحقيق ما يعود عليهم بالخير فى الآخرة أيضاً ولهذا فإن نظامه يهدف إلى تحقيق الغرضين فى آن واحد . فمن هنا نرى أنه لا يقاس بالأنظمة الوضعية . وهذه الأمور يجب أن تتمثل أمام دعاة الإسلام فى كل زمان ومكان .

تحرير المفاهيم الإسلامية من الخرافات والأقاصيص الإسرائيلية

هذه النقطة ذات أهمية أيضاً فإن العلماء السابقين حين وضعوا هذه الترهات والقصص الخرافية (١) فى الكتب الإسلامية ولا سيما التفسير ، فإن معانى هذه الآيات والمفاهيم التى ذكروا فى شرحها هذه الترهات أصبحت بمرور الزمان تفسيراً ملازماً لمعانى هذه الآيات فى أذهان الناس .

---

(١) مثال هذه القصص الإسرائيلية والخرافات كثيرة منها قصة داود عليه السلام مع إحدى زوجات أصحابه أو أتباعه . ووقوف الأرض على قرن ثور ومن الخرافات أيضاً الأحجبة والسحر والشعوذة . . .

تحديد موقفنا من تفسير الآيات الكونية بالنظريات العلمية الحديثة

إن أول واجب علينا أن ندرك أن للإسلام أهدافاً ، جاء لتحقيقها وهذه الأهداف هي بيان طبيعة العقيدة السليمة التي يجب أن يعتنقها كل إنسان ، وبيان علاقة الإنسان بربه ، ثم علاقة الناس بعضهم ببعض ، وأخيراً جاء لوضع القيم الخلقية الثابتة والدستور العام للحياة .

هذه هي أهدافه العامة ، وكل النظريات الإسلامية تدور حول هذه الأهداف الرئيسية .

من هذا يتبين لنا أنه ليس من أهداف الإسلام تعليم الناس العلوم الكونية بجميع فروعها ونظرياتها المختلفة .

لذا نرى أن كل الآيات المتعلقة بمظاهر هذا الكون آيات موجزة غاية الإيجاز ولكن مع هذا الإيجاز قد أعطت حقائق كان الناس يجهلونها حتى في العصر الحديث كما لا يزالون يجهلون بعضها اليوم .

وهنا لا بد أن نتساءل هل الحقائق التي كشف عنها العلم الحديث هي نفس الحقائق التي أشار إليها القرآن ؟ ؟

فهذا السؤال له أهمية ، إذ أن الإجابة عليه هي التي تحدد موقفنا من تفسير الآيات الكونية بالمكتشفات العلمية وهي التي تضع حداً للخلاف الذي يدور بين من يذهبون إلى تفسير الآيات الكونية بالنظريات العلمية وبين من يمنعون مثل هذا التفسير .

ومن قبل الإجابة نقرر أن هذه الآيات الكونية جاءت لتدفع الناس إلى التفكير فى مخلوقات الله ليزيد بذلك إيمانهم بالله ، لأن التفكير فيها يؤدى حتماً إلى وجود خالقها ، وهى فى نفس الوقت أكبر دليل لدى المؤمن على صحة إيمانه . ونرى أن هذه الآيات أتت فى القرآن فى مجالات التفكر والاستدلال على وجود الله وقدرته وعظمته ، وبعد هذا التنبيه نعود لنجيب على سؤالنا السابق .

والحقيقة أننا لا نستطيع أن نحكم بأن الحقائق التى وصلت إليها العلوم هى نفس الحقائق التى أشارت إليها الآيات الكونية ، وإن ظهر لنا أن أكثرها هى ، ذلك أنه ليس هناك دليل قطعى يحتم علينا أن نجزم بأنها مطابقة تماماً ، ولأن الآيات الكونية مجملة فى موضوعاتها وتفسير المجمل إذا لم يفسره الشارع نفسه فإنه يكون مبنياً على الاجتهاد والمسائل الاجتهادية لا تفيد الثبوت والقطع .

هذه من جهة ومن جهة أخرى أن النظريات العلمية الحديثة غير ثابتة أيضاً وذلك لسببين : —

أما من حيث الأساس الذى تعتمد عليه :

فقد اضطرب أساس العلم بعد أن أثار « هيوم » الشك فيه فاختلف العلماء بعد ذلك فمنهم من قال ، مثل « كانت » إنه يقوم على أساس مبدإ السببية العام ، ثم أضاف إلى هذا مبدأ الغائية(١) وجاء « ستيوارت مل » فمع أنه أيد « كانت » إلا أنه لم يجد دليلا قطعياً لصحة هذا المبدأ لأنه — كما قال — ليس مبدأ فطرياً فى النفس يجب التسليم به، وإذا لاحظنا الآراء المتداولة حول أساس العلم — وجدنا أنها لاتعتمد على أساس منطق يجعلنا نجزم بصحة رأى منها .

---

(١) أنظر كتاب المنطق الحديث ومناهج البحث للدكتور محمود قاسم ص ٢٥٧ وما بعدها .

وأما من حيث شمول النظرية على جميع الجزئيات التى تدخل تحتها :

فقد كانت القوانين الميكانيكية تزعم أنها شاملة بناء على مبدإ الحتمية المطلق على جميع المركبات ولكن تقدم علم الطبيعة أثبت أنها لا تصدق إلا على المركبات الكبيرة ، أما اللامتناهيات فى الصغر فلها قوانينها الخاصة بها ، هذا وقد تكون صيغة النظرية ناقصة لأن جزئية من الجزئيات داخلة تحتها لم تتضمنها الصيغة فيكشف عنها العلماء بعد صياغتها ، وفى هذا المجال تحتاج النظرية إلى تغيير صياغتها . كل هذا دفع العلماء إلى أن يقولوا إن النظريات العلمية الحديثة نسبية غير ثابتة وغير مطلقة ولكن ليس معنى هذا أن جميع المكتشفات العلمية غير ثابتة أيضاً إذ أن هناك فرق بين المعنيين .

من أجل هذا كله تقرر أنه لا مانع من تفسير الآيات الكونية بما اكتشفته العلوم الحديثة وقوانينها ولا تمنعه ظنية المطابقة بين المعنيين إذ أن تفسير كثير من الآيات ظنية أيضاً . أما الذين يمنعون هذا التفسير بدليل أن هذه النظريات غير ثابتة وقد فسر بها من قبل بعض الآيات ثم تبدلت فأساءت الظن بالإسلام ، حقاً هذا حصل ولكن ينبغى أن نتنبه إلى أن النظريات العلمية السابقة تختلف عن النظريات الحديثة ذلك أن النظريات القديمة كان أكثرها فرضياً لم يثبت صدقها بينما النظريات الحديثة أثبتت صدقها التجربة والملاحظة ، واحتمال تبدل هذه النظريات تبدلا كلياً بعيد جداً ، أما التغيير الجزئى فهذا من الاحتمالات الممكنة .

وإضافة إلى تنبيهنا إلى ظنية المطابقة بين الأمرين ننبه قراءنا أيضاً إلى أننا لا نجعل الاكتشافات العلمية مقياساً لمعانى الآيات الكونية ، وإنما نستعين بها للشرح والإيضاح ولإظهار إعجاز القرآن عند رجحان اليقين وبيان قدرة الله فى الخلق والإيجاد (١) .

---

(١) فلا مانع مثلا من أن أفسر قوله تعالى « إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده » بما اكتشفه العلم من أن الأرض تدور فى فضاء وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على مدى صدق هذا الكتاب وعلى وجود صانع قادر حكيم .

كفاية الإسلام لملاحقة التطور

إن الإسلام طاقة وحياة يمد الشعوب المؤمنة به بالقوة والحياة ويخرجها من العزلة إلى الانطلاق ومن التأخر إلى التقدم ومن البداوة إلى التحضر ومن الجهل إلى المعرفة .

والدليل على ذلك وجود مئات من الآيات والأحاديث تحث المسلمين على العلم والمعرفة وعلى العمل والجد .

أما إن المسلمين قد تأخروا وتركوا أنفسهم للدعة والكسل والتواكل فذلك لتركهم مبادىء دينهم وأحكام كتابهم ، والتاريخ خير دليل واقعى على وجود هذه القوة الحيوية فى الإسلام إذ أن الإسلام صنع من الشعوب الميتة الهمجية شعباً واحداً متحضراً متمديناً ذا تراث ثقافى وصاحب قيادة .

ومع ذلك اتهم الإسلام بالرجعية وبأنه سبب لتأخر الشعوب الإسلامية وأنه يخلق فى نفوس معتنقيه اليأس والكسل والدعة والتواكل ، ولا شك أن أكثر هذه التهم قد جاءت بسبب الرجعيين الذين يحاولون دائماً تبرير اتجاهاتهم الرجعية وأن يجدوا لها سنداً من الدين ، لأنهم لا يستطيعون دون ذلك أن يجدوا ملاذاً فى المجتمع ولا ستاراً يستترون وراءه ، إن اقتران الإسلام بالرجعية والتخلف يكاد يكون منتشراً فى جميع الأقطار الإسلامية ولا سيما فى أذهان الطبقة المثقفة .

ولاشك أن جذور هذا الاقتران تعود إلى عصر النهضة وما بعده حين بدأت العلوم التجريبية تتقدم بخطوات واسعة ، وحين بدأت عجلة الصناعة تدور بسرعة فائقة منقطعة النظير فى التاريخ ، وحين بدأت أنظمة المجتمعات تتسع وتتفرع بحكم تعقد الأمور المدنية والحضارية .

فى هذه الحال بدأ الرجعيون يقفون أمام هذا التقدم الهائل وقوفاً جامداً بدعوى أن ذلك يتعارض مع الإسلام ومرجع دعواهم هذا يعود حيناً إلى جهل بعضهم بمبادىء الإسلام السامية وأهدافها البعيدة ، وإلى مطامع بعضهم الآخر ومصالحهم الشخصية التى تتستر وراء الإسلام، فهؤلاء الأخيرون يتخذون الإسلام ستاراً يحمون به أنفسهم ومطامعهم .

وعلى أى حال فالجميع مشترك فى هذه المسئولية ، مسئولية إلباس الإسلام ثوب الرجعية وإن اختلف بعضهم عن البعض من حيث القصد والهدف .

إن الإسلام لا يقف أمام التقدم العلمى لأن العلم خير وسيلة للبرهنة على وجود الله ولهذا قال تعالى « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين(١) » ولهذا نجد الإسلام دائماً يحث على استعمال العلم والفن فى سبيل الخير والمصلحة ، أما إذا استعمل العلم والفن فى الشر فهنا نجد الإسلام يقف ضده ولكنه إذا وقف ضد هذا الاستعمال السيىء والتصرف القبيح فليس معنى ذلك أنه وقف ضد العلم فهناك فرق كبير بين هذا وذاك .

ولكن الذين يجهلون فلسفة الإسلام ونظراته البعيدة هم الذين يسيئون إلى الإسلام من حيث لا يشعرون ويظنون أنهم يحسنون صنعاً .

من هذا كله نرى أن الإسلام لاعلاقة له بالرجعية ، وإنما الرجعيون هم الذين يجعلون الإسلام رجعياً .

ومن أجل هذا يجب أن نزيل عن الإسلام مفاهيم الرجعية ، وإلا فإن الإسلام لن يتخذ فى العصر الحديث مكانته اللائقة فى قلوب الناس — عامة والمسلمين خاصة — ما دامت هذه المفاهيم السيئة عالقة به ، لازمة له فى أذهان الناس .

---

(١) سورة الروم : ٢٢


الفصل الرابع
وسائل تنفيذ هذا المنهاج الحديث

لا يكفى أبداً أن نضع منهاجاً ما ، دون أن نبين كيفية تحقيقه ووسائل تنفيذه ، لأن المنهج الذى لا يمكن تطبيقه ينبغى ألا يوضع ، إن عقولنا يجب أن تتفكر دائماً وأبداً فيما يمكن ، وألا تحلق فى نظريات خيالية بحتة لا تمت إلى الواقع بصلة ، وما ضاعت المجهودات العقلية — فلسفية كانت أم علمية — إلا بسبب بحث أصحابها فى تخيلات بعيدة عن الواقع ، أوكان تحقيقه أقرب إلى الاستحالة منه إلى الإمكان .

ولهذا فإننى حين وضعت هذا المنهاج ؛ كنت أفكر فى كل نقطة من نقاطه وأبحث فيها من حيث مدى إمكان تنفيذها ، فما وجدته غير ممكن التنفيذ لم أضعه فى بحثى ، نعم ، قد يبدو بعضها صعباً إذا أخذناه كوحدة مستقلة . ولكن عند ما نعتبره جزءاً من كل مع ترتيبه بين أجزائه ، فإننا لا نستبعده عند ذلك عن مجال التطبيق .

وقد عقدت هذا الفصل من أجل بيان وسائل تنفيذ هذا المنهاج الذى أوضحته فى الفصول السابقة ، لأننى لو لم أرسم هذه الوسائل لكان من الممكن أن يرى القارىء أن تنفيذ ذلك غير ممكن .

هذا وقد وجدت (بعد بحث طويل) أهم الوسائل ثلاث وفى مجال تطبيق هذه الوسائل يجب تطبيقها تدريجياً بالترتيب فالأول ثم الثانى ثم الثالث ويجب ألا نبدأ بالثانى قبل الانتهاء من الأول وهكذا .

وفيما يلى هذه الوسائل أذكرها بالترتيب الذى يبدأ بالأولى فالأولى .

إنشاء أكاديمية إسلامية

كيفية تكوينها :

تتكون هذه الأكاديمية من مجلس عمومى يختار أعضاؤه من أبرز العلماء الموجودين فى العالم الإسلامى .

وتكون لها فروع فى كل قطر من الأقطار الإسلامية ، يختار أعضاء كل فرع من أبناء ذلك القطر الذى يكونون فيه ، ويكونون فى نفس الوقت أعضاء فى المجلس العمومى للأكاديمية إن أمكن ، وإلا رؤساؤها على أقل تقدير ، وبذلك تكون هذه الفروع حلقة اتصال بينها وبين الشعوب الإسلامية ، فتنقل القضايا والمشاكل الموجودة فيها إلى الأكاديمية لبيان حكم الإسلام فيها ، وتترجم كل أعمالها إلى لغات شعوبها .

ويكون لها أيضاً رئيس يختاره المجلس من بين أعضائه بالانتخاب كما يكون لها مقر رئيسى يختاره مجلس الأكاديمية فى أحد الأقطار الإسلامية ، حيث يراه مناسباً من حيث تأمين اقتصادياتها ، وإتاحة الفرصة لنجاحها فى مهمتها .

تمويلها (نفقتها) :

من الممكن أن تقوم دولة من الدول الإسلامية بدفع المبالغ التى تحتاج إليها وإذا لم تقم فمن الممكن جمع تكاليفها المالية من الشعوب الإسلامية ، وأما نفقات فروعها فكل قطر يتحمل نفقة الفرع الموجود فيه .

ومهما كان من أمر فإن المسألة المالية ليست من المشاكل العويصة فى نظرى بل هى بالنسبة لغيرها تعتبر من أسهل المشاكل التى سوف تقابلها ؛ ذلك أن هذه

التكاليف لا تكون باهظة تعجز عنها أية دولة من الدول الإسلامية .

وظيفتهـــا :

تنحصر وظيفتها فى الكشف عن جوهر الإسلام ، بعد استخلاصه من الشوائب ثم وضعه فى صيغة وإطار جديدين ، وبيان حكم الإسلام لجميع القضايا الراهنة فى الوقت الحاضر وفى كل هذا تسير وفقاً للمنهج الذى رسمناه فى الفصول السابقة ، ثم تترجم جميع الكتب التى أصدرتها إلى لغات الشعوب الإسلامية عن طريق فروعها الموجودة فى كل قطر .

ولكى تستطيع أن تقوم بهذا الدور كاملا ، ولتكون أعمالها مقبولة لدى الشعوب يجب توفر الشروط الآتية فيها :

أولا : أن تتوفر فى جميع أعضائها الكفاءة العلمية ، وليس من الضرورى أن يكون عالم الدين فقط ، بل ينبغى أن يتعاون علماء الدين مع علماء الاقتصاد والاجتماع والسياسة والقانون ؛ لتكون هناك دراسة مقارنة أيضاً ، ولكن من الضرورى أن تكون جميع الأحكام الصادرة منها فى هذه المجالات أحكاماً إسلامية .

ثانياً : يجب ألا يكون هناك تأثير خارجى فى أعمالها وأحكامها .

ثالثاً : أن يسود فيها الاتجاه العلمى البحت وهذا يتطلب عدم الانحياز لأى مذهب من المذاهب الإسلامية والتحرر من التعصب لأية فكرة أو طائفة قبل إصدار حكمها الأكاديمى عليها .

أهميتهـا :

إن إظهار روح الإسلام وفلسفته وبيان حكمه على جميع الأحداث والقضايا الراهنة على النحو الذى بينته فيما سبق ووضعها فى إطار جديد يلائم عقلية ومقتضيات العصر الحديث يمثل أهم شىء فى هذا المنهاج غير أن القيام بهذه المهمة كاملا لا يمكن لأحد اليوم ، مهما كان عالماً مجتهداً ولو استطاع فرضاً ، فإن

تعبيره وآراءه الخاصة حول المشاكل المحيطة بنا اليوم لا يؤخذ مأخذ القبول فى جميع الأقطار ولا تكون لرأيه قوة يفرض نفسه على جميع الأقطار الإسلامية .

الأمر الذى جعلنى أرى تطبيق هذا المنهاج عن طريق شخص واحد مستحيل أو قريب من المستحيل .

ومن أجل هذا رأيت خير طريق لهذا هو تنفيذ ذلك عن طريق الأكاديمية الإسلامية .

فإننا وإن لم نستطع أن نعثر على مجتهد واحد من بين هؤلاء العلماء إلا أن اجتماع هؤلاء على رأى والقيام بعمل موحد يكون أقوى وأوثق من رأى مجتهد واحد .

وإذا حصل اختلاف بين هؤلاء حول موضوع ما — وهذا بلا شك ينتظر وقوعه — فإننا عند ذلك نأخذ برأى الأكثر ومن غير شك فى أن الدور الذى ستلعبه هذه الأكاديمية سيكون كبيراً وهاماً فى حياة الأمة الإسلامية ، لا يمكن القيام به بغيرها بأى حال من الأحوال .

إمكان تكوينها :

وللاستدلال على إمكانية تحقيق مثل هذه الأكاديمية نسوق دليلين : الأول : عقلى ، والآخر : واقعى .

أما الدليل العقلى : فإن العقل لا يستبعد تحقيق مثل هذه الأكاديمية بل لا يرى فيه صعوبة كبيرة لأن كل الشروط التى شرطناها معقولة .

وأما الدليل الواقعى : فأقربه إلينا إنشاء مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ولا ينبغى أن يفهم أن الأكاديمية ستكون على غرار مجمع البحوث إذ أن هناك فروقاً كبيرة بينهما .

أولها وأهمها : الفرق المنهجى ؛ فإن منهجه ليس كمنهجنا هنا .

وثانيها : إنشاء فروع لها فى الأقطار الإسلامية ؛ وليست للمجمع فروع .

وثالثها : أن الكفاءة العلمية غير متوفرة فى كثير من أعضاء المجمع وإنما أتخذ المجمع كدليل واقعى لإمكان تكوين الأكاديمية من حيث إنه استطاع أن يجمع أعضاء من الأقطار الإسلامية المختلفة واستطاع أن يعقد بهم مؤتمرات متعددة .

هذا وتوجد هناك أكاديمية للمسيحيين ؛ فلماذا لا ننشىء نحن للمسلمين .

تعليم الإسلام فى مجال التعليم والتثقيف

ليس تكفى أبداً إعادة صياغة المبادىء الإسلامية ووضعها فى إطار جديد وفقاً للمنهج المرسوم بواسطة الأكاديمية الإسلامية إذا لم تدرس هذه الكتب التى تصدرها الأكاديمية وتعلم فى المجالات الثقافية ؛ لأنه بغير ذلك كأننا لم نفعل شيئاً سوى أن عبرنا عن الإسلام تعبيراً صحيحاً ، ووضعناه فى ثوب جديد يناسبه ، ولكن ما الفائدة إذا لم يقدم هذا العمل للجيل الناشىء ، ولم تفهم هذه الحقائق . وهذا لا يمكن إلا إذا أدخلناه فى مجال التعليم ، ونشرناه فى المجالات الثقافية العامة .

إذن فإن إدخال الإسلام فى مجال التعليم ضرورة لا يمكن الاستغناء عنها بأى حال من الأحوال إن أردنا أن نكيف حياتنا وفقاً للمفاهيم الإسلامية ومبادىء الإسلام العامة .

ذلك أنه ليس من الحكمة مطالبة أناس بتطبيق مبادىء لا يثقون بصلاحيتها للتطبيق ، أو يثقون ولكنهم يرون أن غيرها أصلح منها وأجدى وأكثر ملاءمة لروح العصر وعقليته .

إننا إن فعلنا ذلك فلن تجدى مطالبنا شيئاً ولن يستجاب لها أية استجابة .

وإذا حاولنا تطبيقه بالقوة فإن تطبيقه ينتهى حيث تنتهى القوة ، فالقوة لا تستطيع أن تكره الناس دائماً وأبداً على الخضوع للقوانين والمبادىء التى لم تتخذ مكانها فى قلوبهم ، فهم فى هذه الحالة يطبقون المبدأ عند ما يرون القوة ماثلة أمامهم ، وإذا أمنوا منها فى مكان ما فيتركونه وراء ظهورهم ويفرون منها فرار المظلوم مما يكرهه .

ولا خير فى تطبيق مبدإ ما ؛ لم يطبقه الناس أفراداً وجماعات فى كل زمان ومكان يطبقونه من أنفسهم لا بقوة قاهرة عليهم ، أما عند ما يؤمن الإنسان بمبدإ ما إيماناً صادقاً ويتشبع به قلبه وروحه إذا آمن به بأنه خير مبدإ وأصلحه لخير المجتمع ، فعند ذلك يطبقه فى كل حين سواء أمن من سطوة الحاكم أو لم يأمن وسواء وجد الحاكم أو لم يوجد قط ويصبح كل فرد فى المجتمع حارساً على مبادئه محافظاً عليها أينما كان وحيثما وجد .

ولا سبيل إلى هذا إلا بتعليم الجيل المبادىء الإسلامية الصافية من كل الشوائب وإقناعه علمياً بأن هذه المبادىء أصلح وأسمى من غيرها ، وهذا الإقناع غير ممكن فى نظرى إلا إذا سرنا فى تعليمنا وفقاً للمنهج الذى رسمناه .

وبذلك سيدخل الإسلام فى مجال الحياة الواقعية ، ويدخل الناس بطبيعة الحال فى الحياة الإسلامية .

قد يقال إن هذا المنهج ، منهج بطىء يحتاج إلى وقت طويل . حقاً صحيح ما يقال ، غير أنه لا يعتبر عيباً فى المنهج فى نظرى . ذلك أن هذا المنهج بالنظرة إلى النتيجة التى تترتب عليه : يعتبر أصح منهج وأسلمه لأنه منتج إنتاجاً نافعاً .

والمهم فى المنهج هو الإنتاج أو الوصول إلى الهدف كما أن النتيجة التى يؤدى إليها كفيلة بالبقاء ، لأنه يعمل عمله بالقلوب لا بالقوة الخارجية .

هذا وينبغى أن نكون على حذر تام من الأعداء عند تطبيق هذا المنهج . ذلك

أنهم لا يريدون أن يعود المسلمون إلى دينهم ويكرهون الإسلام أشد الكراهة ، لايريدون أن يعودوا إلى دينهم الصحيح . لأن الإسلام إذا عاد إلى الحياة بمفهومه الصحيح فإنه ولا بد أن يدفع عجلة التقدم فى البلاد الإسلامية إلى الأمام بخطوات سريعة ويمد إلى هذه الشعوب بالقوة والحياة ، والانطلاق ، ويخلق فى نفوسهم العزة والكرامة لا يخضعون لمطامع أعدائهم بأى حال من الأحوال مهما كلفهم ذلك من تضحيات . فهم يبيعون كل غال عندهم من أجل المحافظة على حرياتهم وسلامة أوطانهم ، والاعتزاز بمبادئهم وثقافتهم .

فكم من دعوات الإصلاح قامت فى الأقطار الإسلامية فإذا بالأعداء يقفون أمامها ، ويخلقون فى طريقها مشكلات عويصة : مشكلات فكرية وسياسية ، واقتصادية .

ولا ينبغى أن نغفل أيضاً عن عملاء الأعداء الذين يعيشون فى المجتمع الإسلامى ، إذ أن الاستعمار ينكل أحياناً بزعماء الإصلاح بواسطة هؤلاء الذين يظهرون أنفسهم بأنهم من أتباع الإصلاح فإذا بهم يعملون ضدهم من خلف الستار . . . . .

وهكذا يجب أن نحترز من كيد أعدائنا ولا نهتم بالبلبلة التى يحاولون إثارتها ليقفوا أمام الإصلاحات . وأن نثق دائماً بأنفسنا ونعتمد عليها فى تقدمنا والإصلاحات التى نحاول القيام بها سواء كانت إصلاحات دينية أم علمية . قد عرفنا وإياهم أنهم لا يريدون بنا الخير مهما أظهروا من الصداقة وقدموا من المساعدات فإنهم إنما يقدمونها إما ليشتروا بها حريتنا أو ليمتصوا خيرات بلادنا .

ولست أقصد أن نعلن العداوة ، وأن نقطع علاقاتنا معهم ؛ وإنما أريد أن أقول : إنه لايصح أن نعتمد عليهم فى كل شىء ، وأن نكون دائماً فى يقظة حيال مؤامراتهم ودسائسهم الخفية .

وكما ينبغى أن نحترز من هؤلاء : ينبغى أن نحترز أيضاً من العقلية الجامدة الموجودة فى المجتمع الإسلامى التى لا تفهم الدين على حقيقته ولا تسترشد بنور العلم

والمعرفة فى حياتها المعاصرة . وتجعل الدين أداة للتواكل والتخاف فى الحياة الإجتماعية ، بدلا من أن يكون مصدراً للطاقة والقوة فيها .

قيام الدولة بحماية الإسلام

وهذه الوسيلة ضرورية أيضاً من الضرورات لتطبيق الإسلام فى مجال واقع الحياة ، ذلك أن الإسلام بدون دولة : لا تكتمل سلطته على الأمة ، ولا تشمل سطوته على جميع أفراد الجماعة ، لأن الناس لا يستوون فى التمسك بالإسلام ولا الإيمان به .

ولهذا فإن روح الإسلام مهما سادت وسيطرت على عقول الناس ، وقلوبهم ، فلا يخلو المجتمع من ضعاف الإيمان وممن يضيقون بقيود الأديان ، ولا سيما الإسلام الذى يحد دائماً من حرية الأفراد الشهوانية ، ونزواتهم الفاسدة ، ويقف أمام الاتجاهات المنحرفة ، فإذا لم يوجد هناك من يؤدب هؤلاء ويعاقبهم ويمنعهم من هذه الاتجاهات المنحرفة فلا بد أن ينشأ هناك صراع فى داخل المجتمع الإسلامى بين الخيرين والأشرار ، بين المتقين والمفسدين ، بين المستقيمين والمنحرفين .

ولا شك أن وجود الاتجاهات المختلفة والصراع المبدئى الظاهر فى مجتمع ما : يؤخره عن التقدم ، ويثبط الهمم ، ويقلق راحة الجماعة .

أما إذا اتخذ الإسلام مبدأ فى الدول الإسلامية وسارت على هداه ، وصانته من أيدى اللاعبين به ، وعاقبت الخارجين عليه : فلا بد أن تختفى هذه الاتجاهات المنحرفة وذلك الصراع القائم بين هؤلاء وأولئك .

وبذلك يكتسب الإسلام قوتين : قوة روحية ، وقوة مادية ، فمن لم تزجره

القوة الروحية عن الانحراف والفساد ، تزجره القوة المادية ، ولهذا قال عمر ابن الخطاب رضى الله عنه « إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن » .

ولهذا جعل الرسول — صلى الله عليه وسلم — وخلفاؤه من بعده — رضى الله عنهم — الإسلام والدولة متلازمين لايصح فصل أحدهما عن الآخر فى المجتمع الإسلامى ، وإذا صح فصله فى الأديان الأخرى فلايصح فى الإسلام ؛ لأن الإسلام ليس نظاماً روحياً فقط وإنما هو نظام روحى واجتماعى معاً ، إن الإسلام ليس عبارة عن عبادة وأخلاق : كالمسيحية واليهودية وإنما هو عبادة وأخلاق ونظام حياة على حد سواء .

جاء الإسلام لينظم المجتمع من جميع الجهات ، ولكن الذين يجهلونه يظنونه كالأديان الأخرى . والذين فصلوا الدين عن الدولة ومن ينادى بذلك قد تأثروا بالاتجاهات الغربية التى رأت أن المسيحية غير قادرة على تنظيم المجتمع لأنها خالية من المبادىء السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

وإذا كان يقول بعضهم : إن النظريات الإسلامية المتعلقة بتنظيم الشئون الاقتصادية والسياسية والإدارية — غير كافية ، فإنهم لم يتدبروها بدقة وإحاطة ولو أنهم تدبروها لعلموا أنها كافية ولعدلوا عن قولهم هذا .

إن النظريات الإسلامية قد حددت تلك الجوانب تحديداً عاماً .

وليس من الضرورى أن يحدد جميع القوانين الفرعية الداخلة تحته فإن هذه الأمور متروكة للساسة يحددونها تحت المفاهيم العامة المحددة — وفقاً لحاجة الناس ومقتضيات الظروف الموجودة من عصر إلى عصر — ولا ضير فى هذا طالما أنها مستمدة من روح الإسلام ونظرياته العامة .

بل إن قلة النظريات تساعد على مسايرة التطور الطبيعى للبشرية ولو أن كل جزئية من الجزئيات حددت فى عصر الرسول ومنع كل تطور يحصل فى العصور التالية بحجة أنه لم يحدث مثله فى عهد الرسول — صلى الله عليه وسلم — لو حرم

هذا لما أمكن تطبيق الإسلام فى العصر الحديث لأن هناك حوادث كثيرة لا يمكن أن نجد مثلها فى العصر القديم من حيث الحوادث نفسها .

من هذا كله يتبين لنا أن الدولة ضرورة للإسلام لا غنى عنها لحمايته من أعدائه ومن الذين يتخذونه وسيلة لمآرب أخرى ، ولتطبيقه فى مجال الحياة ودوام تطبيقه فيها ، وأنه بدون حمايتها : يبقى كاليتيم بين أهله وأبنائه ووطنه .

بسم الله الرحمن الرحيم

خاتمة

والآن وقد انتهى الكتاب ولم يبق لى كلمة أقولها هنا سوى أن أحمد الله . وأشكره على توفيقه إياى فى كتابة هذا الكتاب ، وعلى هدايته لى إلى هذا المنهج الذى طالما قد بحثت عنه مدة طويلة ، فقد كنت أبحث عنه منذ أن بدأت أفهم روح الإسلام ومشكلات المجتمع الإسلامى . ومشكلات الإنسان فى هذا الكون ومعالجة الإسلام لهذه المشكلات معالجة حاسمة .

كما كنت أتأمل فى الأسباب التى أدت إلى تشويه روح الإسلام ، والعوامل التى أدت إلى إبعاد المسلمين عن الحياة الإسلامية ، وكيف نستطيع إزالة تلك الأسباب وإظهار جوهر الإسلام ، وكيف نستطيع أيضاً إعادة روح الإسلام إلى نفوس المسلمين .

بعد كل هذا التفكير والتأمل فى كل هذه النواحى : اهتديت إلى طريقة لمعالجة كل هذه القضايا وإلى منهج واضح يرسم لنا طريقاً واضحاً وقد استرحت له ووثقت به ، وحاولت بيانه بإيجاز فى هذا الكتيب بقدر استطاعتى ومقدرتى .

وإنى لأسأل الله أن يوفقنا فى تحقيقه وتطبيقه حتى يتخذ الإسلام مكانته اللائقة به بين أبنائه . كما أسأله تعالى أن يجعل ما بذلته من جهد فى سبيله خالصة لوجهه !

وآخر دعواى « ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين »

قد انتهيت من هذا البحث فى ١٥/٨/١٩٦٧ ·

المراجـــع

إسم الكتاب	المؤلف
القرآن الكريم	
١ ــ الجانب الإلهى من التفكير الإسلامى	الدكتور محمد البهى
٢ ــ الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى	» » »
٣ ــ الإسلام بين أمسه وغده	الدكتور محمود قاسم
٤ ــ فى النفس والعقل لفلاسفة الإسلام والأغريق	» » »
٥ ــ منهاج الأدلة فى عقائد الملة	لابن رشد
٦ ــ منهاج الإسلام فى الحكم	محمد أســـد
٧ ــ الإسلام وحاجة الإنسانية إليه	الدكتور محمد يوسف موسى
٨ ــ الإسلام والحياة	» » » »
٩ ــ قصة الإيمان	نديم الجسرى
١٠ ــ كتب الأحاديث	. . . .
١١ ــ التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية	الدكتور أحمد شلبي
١٢ ــ التشريع الجنائى فى الإسلام مقارناً بالقانون الوضعى	عبد القادر عوده
١٣ ــ الله يتجلى فى عصر العلم	جون كلوفرموسما
١٤ ــ النظريات السياسية الإسلامية	الدكتور محمد ضياء الدين الريس
١٥ ــ ليس من الإســـلام	الأستاذ محمد الغزالى
١٦ ــ رسائل ابن سينا فى الحكمة والطبيعيات	ابن سينـــا

اسم الكتاب	المؤلف
١٧ — الفلسفة القرآنية	عباس محمود العقاد
١٨ — فى التصوف الإسلامى وتاريخه	الأستاذ رينولد ، نيكولسون
١٩ — المنطق الحديث ومناهج البحث	الدكتور محمود قاسم
٢٠ — محاضرات فى الفلسفة الإسلامية	الدكتور يحيى هويدى
٢١ — فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال	ابن رشد
٢٢ — مبادىء الفلسفة والأخلاق	الدكتور زكريا إبراهيم
٢٣ — دراسات فلسفية	محمد طلعت زهروى وغيره
٢٤ — محمد رسول الله	اتيين دينيه (ترجمة الدكتور عبد الحليم محمود)
٢٥ — الرسالة القشيرية	الإمام القشيرى
٢٦ — المنقذ من الضلال	الإمام الغزالى

فهرس

هذا الكتاب

ما من شك فى أن الإسلام — الذى هو دين الفطرة ؛ الذى ارتضاه الله تعالى لعباده — قد أهمله ذووه ، وأضاعه حفظته ؛ مكتفين بالتغنى بعظمته — بعد أن داسوها — وبحسن أنظمته — بعد أن وأدوها — فأصبح غريباً فى دياره ؛ فى الوقت الذى تبحث فيه الأمم الأخرى عن شفاء لأدوائها — التى تعاظمت — وعلاج لمشكلاتها — التى تفاقمت — حتى طرقوا — فى بحثهم — أبواب الإسلام ؛ متلمسين الخلاص عن طريقه !

والإسلام — وحاله كما وصفنا — أصبح فى حاجة إلى منهاج جديد ؛ يلتزمه حماته ، ويسير عليه دعاته .

وهذا الكتاب — رغم صغره — قد أبان لنا الطريق الواضح ؛ الذى يجب السير عليه فى الدعوة إلى الإسلام فى العصر الحاضر ؛ وإزالة ما ران على ماضيه المجيد العطر ؛ وما يجب أن يكون عليه المسلمون فى حاضرهم ومستقبلهم .

والكتاب فى معالجته لهذه الأسباب — قد سار على منهج خاص : لم يسبق إليه .

فهو بذلك يقدم منهجاً حديثاً ، وتفكيراً جديداً : فى قضية الدعوة إلى الإسلام فى عصرنا الحاضر . كما قدم منهجاً لإظهار جوهر الإسلام وعرضه عرضاً جديداً .

وقد أعطى لنا الكتاب صورة واضحة لفلسفة الإسلام : كمنهاج خالد للحياة الإنسانية . وأوضح مدى حاجة البشرية إلى هذا المنهاج ، وهذه الفلسفة .

وقدم الكتاب : وسائل تنفيذ هذا المنهاج ؛ بعد ترجمته إلى واقع الحياة .

كما أبرز لنا قيمة فلسفة منهاج الإسلام : كطريق وحيد لإسعاد البشرية ؛ بين سائر الفلسفات الأخرى التى يزعم أربابها : أنها مناهج كفيلة بإسعاد الإنسان فى هذه الحياة ؛ فى حين أنها لا تزيده إلا تعاسة وشقاء وبؤساً .

وأبان الكتاب : أهم العوامل التى شوهت روح الإسلام ومفاهيمه ، وصبغت جوهره غير صبغته ، وأزالت معالم بهائه وجماله ؛ حتى بدا للناس مبتذلا : ينظرون إليه نظرة الاحتقار والازدراء .

فكان لابد للمسلم — الغيور على دينه — أن يبحث عن منهج يخلص دينه الحق من هذه العوامل وآثارها : فكان هذا المؤلف ، وكان هذا الكتاب !